هيرمينوطيقا اللغة عند جادامر
رؤية نقدية

أ.د. صفاء عبد السلام علي جعفر
أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة

"إن الوجود الوحيد الذي يمكن فهمه هو اللغة"(*)

تبين لنا العبارة السابقة "لجادامر" كيف أن مسألة الهيرمينوطيقا(**)(١) مهمة أساسية ولا تنحصر في المسألة المنهجية للعلوم الإنسانية، لأن الارتباط بالعلم، والاقتراب منه بواسطة اللغة ليس مسألة خاصة بالعلوم الإنسانية، وإنما بالبعد الإنساني عمومًا، بحيث يمكن القول بأن إشكال الهيرمينوطيقا لا ينحصر في الإشكال المنهجي للعلوم الإنسانية؛ وإنما هو إشكال إنساني ينصب على "قدرات الوجود الإنساني"(٢).

وإذا كان كتاب "جادامر" "الحقيقة والمنهج Wahrheit und Methode" عام ١٩٦٠ تاريخًا نقديًا للموروث الهيرمينوطيقي، فإن البعد الفينومينولوجي، والتاريخي، والفهم هو بمثابة حجر الزاوية في فكر "جادامر" الهيرمينوطيقي، علمًا بأن الفهم نوعان عند "جادامر":

١- إدراك محتوى الحقيقة أو إدراك حقيقة شئ ما.

٢- فهم ما يقصده المؤلف من خلال معرفة الظروف النفسية والحياتية التي تحكم تأكيده شيئًا ما أو فعله إياه(٣).

أما بعد فهذه الدراسة تقع تحت عنوان "هيرمينوطيقا اللغة عند جادامر" وتبدأ "بمدخل تمهيدي" عن الهيرمينوطيقا الفلسفية عنده في ضوء مصادر فلسفته والمفاهيم الأساسية لهذه الهيرمينوطيقا، وينتهي هذا المدخل التمهيدي بتعقيب يبين الخصائص الأساسية لهذه المفاهيم.

كما تتناول الدراسة أولاً "هيرمينوطيقا الحوار وماهية الفكر عند جادامر"، فتلقي الضوء على هيرمينوطيقا الحوار الأفلاطوني عند "جادامر"، وتأثير "هايدجر" على

(*)"Sein, das verstanden werden kann, ist" Sprache, (Vgl. Gadamer, H.G.: "Wahrheit und Methode", J.C.B Mohr (Paul Siebeck) Tubingen, 1986, S. 478.

(**) يمكن ترجمة مصطلح الهيرمينوطيقا Hermeneutik بعلم التفسير أو فن التفسير وكلمة "فن" لها ما يبررها لأن التفسير فن وترجمة وتفسير النصوص أي ars باللاتينية، وKunstlehre بالألمانية أي آلية وتقنية، وشلايرماخر (أحد أعلام الهيرمينوطيقا في ألمانيا في القرن الثامن عشر) يقول: "الهيرمينوطيقا عبارة عن فن"؛ فهي أداة وتقنية (ترجمة، وتفسير، وفهم، ومقارنة وليست نظرية أو علمًا).

(١) هانز جئورج جادامر: "التأويل واللغة والعلوم الإنسانية"، ترجمة محمد شوقي الزين – مجلة فصول المجلد السادس عشر – العدد الرابع – ربيع سنة ١٩٩٨م، ص: ٣٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٣٣٩-٣٤٢.

(٣) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا جادامر"، ترجمة كاميليا صبحي، مجلة فصول، العدد ٥٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٣م، ص ١٥٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هيرمينوطيقا الحوار عند "جادامر"، ثم مفهوم الانتماء وحضور المعنى عند الفيلسوف الأخير، وتنتهي بالتعقيب، وفيه توضيح لطبيعة هيرمينوطيقا الحوار عند جادامر، وأهم النتائج المترتبة على ذلك.

وتتناول الدراسة ثانيًا تفسيرًا للعبارة الشهيرة عند جادامر القائلة بأن "الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة" ثم تعقيبًا يبين أهم النتائج المترتبة على هذه العبارة – كما تتناول ثالثًا طبيعة هيرمينوطيقا الفهم واللغة عند جادامر، ثم تعقيبًا يبين العلاقة بينهما وأهم النتائج المترتبة عليها – أما عن الموضوع الرابع في هذه الدراسة فيدور حول هيرمينوطيقا الكتابة والترجمة عند "جادامر" وينتهي بتعقيب يوضح أهم النتائج المترتبة على مفهومي الكتابة والترجمة عند جادامر من الناحية الهيرمينوطيقية.

كما تتناول الدراسة خامسًا طبيعة "هيرمينوطيقا التناهي في اللغة والخبرة التاريخية"، وتوضيحًا لذلك حاولنا الكشف عن معنى التناهي في اللغة والتاريخ، والسؤال عن التاريخ وعلاقته باللغة، ثم تفسير العبارة المهمة القائلة بأن "الحقيقة تحدث استجابة للتراث"، ثم يأتي التعقيب ليكشف عن أهم النتائج المترتبة على خبرة التناهي في اللغة والخبرة التاريخية عند جادامر.

وتدور الدراسة سادسًا حول طبيعة "الهيرمينوطيقا والقول الشعري عند "جادامر"، وفيها يتم الكشف عن طبيعة القول الشعري، والسؤال عن الحقيقة وعلاقته بالقول الشعري (من خلال مفهوم اللعبة) كما سيأتي بيانه تفصيلاً، والتعقيب على ذلك يبين أهم النتائج التي تم التوصل إليها فيما يتعلق بهيرمينوطيقا القول الشعري عند "جادامر".

أما الموضوع السابع والأخير من هذه الدراسة فيتناول "معنى الإنصات الحقيقي، والصلة بين اللغة والانفتاح" وفي التعقيب توضيح لأهم النتائج المترتبة على هذه الصلة.

وتشتمل الخاتمة على جانبين أساسيين، أولهما أوجه النقد الممكنة لهيرمينوطيقا اللغة عند "جادامر"، وثانيهما محاولة الكشف عن حقيقة موقفه في هيرمينوطيقا اللغة أو تفسيرها تفسيرًا أنطولوجيًا متأثرًا في ذلك بأستاذه "هايدجر".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هيرمينوطيقا اللغة عند جادامر:

أولاً: مدخل تمهيدي: (الهيرمينوطيقا الفلسفية عند جادامر):

تناول هانز جئورج جادامر(*) سيرته الذاتية في نصين مهمين مبينًا المؤثرات الثقافية في حياته الفكرية، وموضحًا وقائع حياته وعلاقته بتكوينه العقلي؛ فيتحدث في النص الأول الذي نشره تحت عنوان "سنوات تعلم الفلسفة" Philosophische Lehrjahre عن سنوات التلقي الأولى، ثم عمله أستاذًا للفلسفة، وفي النص الثاني الذي نشره في مقالة لمكتبة الفلاسفة الخالدين تناول رحلته العقلية خصوصًا بعد نشر كتابه الشهير "الحقيقة والمنهج" Wahrheit & Methode في عام ١٩٦٠، أما عن الجديد في هذين النصين فهو الطريقة غير المألوفة التي يكشف بها "جادامر" عن سيرته الذاتية في ضوء مؤلفاته العديدة(١).

أما عن مؤلفاته عمومًا فهي تشتمل على نصوص ذات مغزى عن فلسفة اليونان الأوائل، والأدب، والفن، والترجمة، فضلاً عن تساؤلات عن الثقافة المعاصرة والسياسة، واللاهوت، والطب، والصحة، بحيث يمكن القول بأن مؤلفاته قد ألهمت عددًا من التجارب الفلسفية المتنوعة(٢).

(*) ولد جادامر في ماربورج في عام ١٩٠٠، ونشأ في بريسلاو Breslau، وتعكس حياته الأكاديمية أهم المذاهب الفلسفية السائدة في ألمانيا في القرن العشرين؛ حيث التقى بالكانطية الجديدة عندما درس الفلسفة في ماربورج فيما بين عامي ١٩١٨-١٩٢٢، وفي عام ١٩٢٣ انتقل جادامر إلى فرايبورج لدراسة الفينومينولوجيا على يد هسرل وهايدجر، وأنها رسالته للدكتوراه المؤهلة للتدريس بالجامعة Habilitation تحت إشراف "هايدجر" في عام ١٩٢٩، وذلك بعد عامين من نشر كتاب "الوجود والزمان" Sein & Zeit لهايدجر في عام ١٩٢٧م، كما درس في جامعة ماربورج الفيلولوجيا الكلاسيكية. أما عن رسالته المؤهلة للتدريس في الجامعة Habilitation، فكانت تدور حول أفلاطون وعنوانها: "الأخلاق الجدلية عند أفلاطون Platos Dialektische Ethik" في عام ١٩٣١.

بدأ جادامر في التدريس في "ماربورج"، كما درس في مدينة لايبتسج فيما بين عامي (١٨٣٨-١٩٤٧م)، وفي فرانكفورت (١٩٤٧-١٩٤٩)، وفي هايدلبرج حيث تقلد كرسي الفلسفة الذي سبق أن شغله كارل ياسبرز، واستمر في إلقاء المحاضرات في جامعة هايدلبرج حتى بعد وصوله إلى سن التقاعد، كما قام بالتدريس في جامعة بوسطن بالولايات المتحدة. وفي عام ١٩٥٢ أسس مع هلموت كون "Kuhn" مجلة The Philosophische Rundschau التي تعد من أهم المجلات الفلسفية في ألمانيا في ذلك الحين.

(1) Schmidt, Dennis: "Gadamer, In A companion to Continental Philosophy", P.434.
(2) Ibid.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمكن القول بأن إصدارات "جادامر" قلت نسبياً حتى ظهور كتابه "الحقيقة والمنهج" في عام ١٩٦٠، مما يذكرنا بكتاب "كانط" الشهير "نقد العقل الخالص" الذي كتبه في مرحلة ناضجة من فكره الفلسفي(*).

وعلى الرغم من تأثره الكبير بأستاذه "هايدجر" كما سيأتي بيانه، فلا يمكن إنكار تأثير أفلاطون، وأرسطو، وأوغسطين، وهيلدرلين، وكانط، وهيجل، ودلتاي، وهسرل وريكله، وغيرهم ممن استلهمهم "جادامر" في إسهامه الفلسفي الأصيل(١).

أما عن مؤلفه الضخم "الحقيقة والمنهج" فقد يعطي عنوانه انطباعًا بأنه يعد بمنهج يكشف عن الحقيقة، والحق أن "جادامر" لم يطور قط هيرمينوطيقا فلسفية كمنهج فلسفي؛ بل إن العكس تمامًا هو الصحيح فمن القضايا الأساسية التي يطرحها "جادامر" في هذا الكتاب أنه لا يوجد منهج كافٍ للكشف عن الحقيقة، وأن الحقيقة تنتمي إلى التاريخ بصفة أساسية بحث لا تتكشف بصورة تامة، وأن السؤال المحرك للهيرمينوطيقا ليس هو السؤال عن المنهج الذي سبق أن دفع "ديكارت"، واعتبره السؤال الموجه في تطور الحداثة، كما شغل الذهن العلمي والمنهجي منذ القرن التاسع عشر؛ فالحقيقة جزء لا يتجزأ من المنهج، وأي رؤية للعالم أو إنتاج للمعنى لابد أن يمرا من خلال تطبيق صارم للمنهج. كما ينتقل "جادامر" من المنهج إلى الحقيقة لا ليثبت إمكانية إقرار حقيقة هي علاقة مع الآخر، وحوار غير منته بين "نحن" و"التراث"؛ أي أن الحقيقة تحمل داخلها المنهج، وتتجاوزه إلى عالم أرحب من الفهم والتواصل(٢).

يرى "جادامر" تعذر الوصول إلى منهج يمكن تطبيقه على حالة جزئية بينما تتجاوز هذه الحالة أي تصور مسبق؛ وإنما يعني المنهج عنده أن نفهم الظاهرة نفسها في تفردها،

(*) كما يمكن القول بأن كتاب "الوجود والزمان" لهايدجر من ناحية، والحقيقة والمنهج لجادامر من ناحية أخرى من أهم الإنجازات في مجال الهيرمينوطيقا في القرن العشرين. ومن ناحية أخرى تصدى جادامر في الستينيات لمناقشة شهيرة مع الفيلسوف "هابرماس" ومدرسة فراتكفورت والنظرية النقدية، وفي السبعينيات نجح أثناء رحلته التدريس في الولايات المتحدة في توضيح إسهام "الحقيقة والمنهج" للفلسفة العملية، مما حتم عليه الاتصال بفلاسفة أمريكان متأثرين بالبراجماتية مثل ريتشارد برنتشتاين .Bernstein R وريتشارد رورتي .Rorty, R، أما في الثمانينات من القرن العشرين فقد عقد مناظرة مع "جاك دريدا" عن الهيرمينوطيقا والتفكيك وهو الأمر الذي يستحق دراسة مستقلة.

(Cp. "Gadamer", in Routledge Ency. of Philosophy, edit by Edward Criag, Routledge, London, 1998, P. 827).

(1) Ibid., P. 433.

(٢) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا جادامر"، ترجمة كاميليا صبحي، مجلة فصول، العدد (٥٩)، ص: ١٢٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتاريخيتها العينية أيا كان حجم الخبرة التي تشتمل عليها، فإن الهدف ليس التأكيد على الخبرات العامة.

أشار "جادامر" إلى أن التفسير الهيرمينوطيقي لا ينحصر في بعض الخبرات الجزئية مثل الخبرة الجمالية؛ وإنما يتجه في مسار كلي، مما يعني أن الخبرة الجمالية وغيرها ليست أساليب منفصلة عن الخبرة، وإنما تمثل ماهية الخبرة ذاتها[١].

ومن ناحية أخرى فقد نشر "جادامر" أربعة أجزاء من المؤلفات الصغيرة (مثل كتابات صغيرة Kleine Schriften بين عامي ١٩٦٧ – ١٩٧٧) وتشتمل على دراسات هيرمينوطيقية مهمة عن أفلاطون، وهيجل، وباول سيلان Celan، وآخرين، أما عن مؤلفاته العديدة فقد تم جمعها في عشرة أجزاء في سلسلة الأعمال الكاملة[٢] Gesammelte Werke، هذا ويمكن القول بأن "الحقيقة والمنهج" يمثل حقبة جديدة تمامًا في تطور الفلسفة الغربية، حيث حمل "جادامر" على كاهله إرث الهيرمينوطيقا كما جاء عند شلايرماخر (في دراسته الإنجيلية)، ودلتاي (في دراسته التاريخية) وهايدجر (في دراسته الأنطولوجية)؛ ومع ذلك فقد كان إسهام "جادامر" للهيرمينوطيقا الفلسفية بالغ المدى، حيث أسند إلى الهيرمينوطيقا مهمة تفسير النزاع بين الفلسفات المعاصرة، كما اهتم بالبحث في التطور الغربي بأسره في مجال الاستطيقا والفكر منذ عصر النهضة، فضلاً عن إشارته العديدة إلى أفلاطون، مما يعني أنه اضطلع بمهمة الدخول في حوار مع التراث الفلسفي بهدف فهمه وتفسيره[٣]، ومما يعني أيضًا أن إسهامه في هذا التراث قد ارتبط بأسلوبه في التفلسف المسمى بالهيرمينوطيقا ملتزمًا في ذلك بعرض واسع لموضوعات تاريخ الفلسفة التي عكست مشروع الهيرمينوطيقا كما طوره "جادامر"[٤].

أما عن هدفه الفلسفي يفقد أراد أن يصوغ على وجه التحديد السؤال عن الحقيقة كما تتكشف في مجال الخبرة الفنية – مثلاً – في إطار التصورات الإنسانية، والتصور الاستطيقي الذاتي عند كانط، وما ترتب على ذلك من نموذج رومانتيكي، كما أوضح أن هذه الصياغات الاستطيقية للحقيقة تؤدي إلى السؤال عن "الفهم في العلوم الإنسانية"، فضلاً عن أنه استطاع في ضوء نظرية الخبرة الهيرمينوطيقية أن يصيغ تفسيره الخاص عن

(1) Schmidt, D.: "Gadamer": In a Companion to Continental Philosophy".. P. 436-437.
(2) Ency. of Philosophy, Routledge, P. 827.
(3) Silverman, Hugh J. (edit): Gadamer Hermenetices", Continental Philosophy IV, Routledge, Chapman and Hall, Inc., London, 1991, P. 1.
(4) Schmidt, P.: Gadamer…", P. 433.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"اللغة" بوصفها "أفق الأنطولوجيا الهيرمينوطيقية"(*)، مما يشير إلى دوره الحاسم في إعادة توجيه الفلسفة الغربية في ألمانيا بعد سنوات الحرب العالمية الثانية، وخصوصًا في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين(١). كما يمكن القول بأن الهيرمينوطيقا الفلسفية عند "جادامر" تقف في مواجهة التأكيد المنهجي على النظريات الهيرمينوطيقية التقليدية لينحصر هدفه في وصفه العملية التفسيرية الأساسية، والمواجهة الوجودية بين منظورين أو أفقين من التوقعات التي تجعل التفسير ممكنًا(٢).

أ- مصادر فلسفته:

أثرت فينومينولوجيا "هسرل" والأنطولوجيا الهيرمينوطيقية عند "هايدجر" – وخصوصًا بعد نشر "كتاب" "الوجود والزمان" في عام ١٩٢٧، حيث أصبحت الهيرمينوطيقا تفسيرًا للوجود الإنساني – أثرًا بالغًا في جادامر، وعلى الرغم من ولاء جادامر لـ "هايدجر" حتى إنه كان محرر محاضرته الشهيرة عن "الأصل في العمل الفني" في عام ١٩٦٠، وهو العام نفسه الذي نشر فيه كتابه "الحقيقة والمنهج"، فإنه لم يفكر في الزمان وتاريخ الوجود فحسب، وإنما في تاريخ الفكر الفلسفي والاستطيقي، أما عن الحركة الفكرية السائدة في فرنسا في ذلك الحين فتمثلت في البنائية Structuralism التي بدأت تحل محل الفينومينولوجيا الوجودية؛ فنجد الأنثربولوجيا البنائية عند ليفي ستروس، والتحليل النفسي عند لاكان Lacan، والنقد الحضاري عند بارت Barthes، أما في ألمانيا فقد حدثت قطيعة بين هيرمينوطيقا "جادامر"، والفينومينولوجيا الترانسندنتالية، والوجودية التي ميزت هذا التراث منذ "هسرل" وحتى "هايدجر"؛ إلا أن "جادامر" قد تمكن من أن يقدم طريقة جديدة لفهم التفكير الفلسفي الغربي؛ بحيث تجاوزت الهيرمينوطيقا الألمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين التي وصفها شلايرماخر، ودلتاي، وهايدجر.

وجدير بالذكر أنه في أثناء الفترة التي التقى فيها "جادامر" بهايدجر في صيف عام ١٩٢٣، كان قد اتجه إلى دراسة المفهوم الأرسطي عن الأخلاق، ونشر "جادامر" مؤلفه الأول حول هذا الموضوع في رسالة للدكتوراه عن "الجدل الأخلاقي عند أفلاطون" تفسير لفيلبيوس" كما سبق ذكره(٣).

(*) The Horizon of a hermeneutical Ontology, Sprache als Horizont einer hermeneutischschen Ontologi.

(1) Silvermann, H. J: "Gadamer and Hermeneutics."…. P. 1.

(2) Outwaite, W.: In Biographical Dictionary of 20th Centrury Philosophers, edit. By Brown's Collinson, D., Wikinnon, R. Routledge, London, 1996, P. 292.

(3) Silvermann, H. J.: "Gadamer & Hermentetics", P. 1-4.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما أصبح البحث الفلسفي – بتأثير "هايدجر" – وسيلة لوصف الظواهر ذاتها، فقد وجد ذلك جادامر أيضًا في فكر أفلاطون في بحثه عن "المعنى الحقيقي للحوار السقراطي"، كما سمح له بأن يعقد الصلة بين كل من أفلاطون وأرسطو حول مسألة الأخلاق أو الخير بمعناه الأخلاقي[١].

و"جادامر" مثل "هايدجر" رفض الهيرمينوطيقا كمجرد منهج للعلوم الإنسانية والتاريخية يمكن مقارنته بالمنهج المستخدم في العلوم الطبيعية. إن الفلسفة الهيرمينوطيقية في المقابل تدور حول عملية الفهم الإنسانية التي تتضمن دورًا Zirkel-Circle بطريقة يتعذر تجنبها، لأننا نفهم الكل من خلال الأجزاء والعكس صحيح، علمًا بأن الفهم – كما سنبين تفصيلاً – ليس فعلاً يمكن أن نحققه منهجيًا وموضوعيًا وإنما هو "حدث" Geschehen-event[٢].

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن "الحقيقة والمنهج" عند "جادامر" قد تأثر بالفينومينولوجيا الوجودية في "الوجود والزمان" كما جاءت عند "هايدجر"، وحولها إلى هيرمينوطيقا فلسفية، فضلاً عن اعتراف "جادامر" بأن "الأصل في العلم الفني"[*] عند "هايدجر" قد أدى دورًا حيويًا في صياغته الأولى لفكرة الهيرمينوطيقا الفلسفية.

اعتقد "هايدجر" مستلهمًا شعر هيلدرلين[*] أن حقبة جديدة من التاريخ الأوروبي على وشك الظهور؛ أما "جادامر" فلم يشارك "هايدجر" في قوله بالحاجة الماسة إلى بداية جديدة وإنما الإحياء الإبداعي الخلاق لحقيقة التراث والتاريخ الأوروبي، وهو بذلك يهدف ببصيرة نافذة إلى الإبقاء على تحول "هايدجر" إلى الفن والشعر واللغة في مؤلفاته بعد

---

(1) Ibid., P. 4.
(2) Wright, K.:"Gadamer" in Ency of Philosophy, P. 827.

(*) أكد هايدجر في هذه المحاضرة أن الحقيقة التي يكشف عنها العمل الفني تنشأ من النزاع أو من المعركة الناشبة بني "الأرض" و"العالم"؛ أما ما لفت انتباه "جادامر" في ذلك، فهو وصف "هايدجر" للفن بأنه حدوث للحقيقة؛ حيث تصبح الأرض شرطًا ضروريًا لوجود العمل الفني؛ والأرض هنا ليست المادة Stoff-Matter أو الكتلة المادية المعروفة، وإنما ما يستمر في إلغاء ذاته على الرغم من أنه الأصل الذي تصدر عنه الموجودات (CP. Ency. of Philosophy, P. 829).

(*) يلاحظ أن شعر هيلدرلين قد أدى دورًا ثانوياً في فكر "جادامر" على عكس الحال عند "هايدجر"، وذلك بمقارنة ذلك بالأهمية التي ينسبها جادامر للحوار الأفلاطوني وفلسفة أرسطو العملية؛ فمثلاً يقوم مفهوم جادامر الحوار الأفلاطوني وفلسفة أرسطو العملية؛ فمثلاً يقوم مفهوم جادامر عن اللغة بوصفها حوارًا مع النص، كما سيأتي بيانه على مفهوم أفلاطون عن الحوار، أما مفهوم أرسطو عن الحكمة العملية Phronesis، فهو يغذي الحل الذي قدمه جادامر لمشكلة تطبيق فهم النص على الموقف العملي الذي نحياه (CP. Ency. of Philosphy, P. 830).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"الوجود والزمان"، ثم إعادة توجيهها إلى الماضي، ومن ثم يعيد "جادامر" تفسير "الأرض" التي ترتبط عند "هايدجر" بالأرض الألمانية، ويجعلها ممثلة للتراث الأوروبي الغربي، وهذا التراث مثله مثل الأرض يستمر في إلغاء المصادر عند "هايدجر"، بينما أصبحت هذه المصادر مبعثًا للإحياء بدلاً من أن تكون مجرد مصادر وسيطة لكل ما هو جديد عند جادامر"[1].

لقد مرت فترة حاسمة من الصمت عثر فيها "جادامر" على المسافة المطلوبة التي تبعده عن "هايدجر"، وفي ذلك الوقت نشر كتابه "دروب هايدجر" Heidegger's Ways- Heideggers Wage في عام ١٩٨٣م، وعلى الرغم من ذل فيمكن القول بأن فكر "جادامر" لا يمكن تناوله إلا بالإشارة إلى السابقين عليه، كما أن كارثة الحروب من العشرينيات إلى الأربعينيات من القرن العشرين قد أسهمت في تشكيل فلسفته نحو قوة الحياة، وفاعلية التاريخ، وحياة الشعوب كما سنرى.

وإذا أردنا أن نحدد بدقة بدايات التأثير في فلسفة "جادامر"، فلابد أن نعود أدراجنا إلى صلته المبكرة بأساتذته مثل هايدجر، وهارتمان، وناتورب Paul Natorp مطبقًا في ذلك الحين المنهج الفينومينولوجي، وبتأثير تشجيع "هايدجر" له من أجل إثارة السؤال عن "نهاية الميتافيزيقا"، نجد "جادامر" قد اهتم اهتمامًا بالغًا بالفلسفة اليونانية – كما سبق بيانه – بحيث شغلت تلك الفلسفة أجزاءً ثلاثة من أعماله الكاملة المكونة من عشرة أجزاء[2] وربما يرجع ذلك إلى عثوره في فلسفة "ما قبل سقراط" وخصوصًا هيرقليطس على أسلوب في التفكير لم يكن سائدًا في اللغة التصورية، كما وجد لدى أفلاطون مصدرًا غنياً للتفكير من خلال منطق السؤال والإجابة؛ ذلك المنطق الحاسم في توضيح الهيرمينوطيقا، أما عند أرسطو – وخصوصًا في كتابة "الأخلاق" – وجد "جادامر" نموذجًا للتفكير في لغز المعرفة المتناهية يسير جنبًا إلى جنب من التراث.

ومع استغراقه في الفينومينولوجيا عند "هسرل" و"هايدجر"، ووضع الأسئلة عن نهاية تراث التفلسف الغربي، نجد "جادامر" قد اقترب من "هيجل" من حيث التركيز على مصادر ذلك التراث، وإثارة الجديد من التساؤلات عن طبيعة هذا التراث وتحولاته.

وجدير بالذكر أن هذه المزاوجة بين الدوافع والاهتمامات، بين الفلسفة الألمانية واليونانية، وبين الفكر الثوري والتقليدي قد جعل من العسير محاولة تصنيف فكر "جادامر"

(1) Wright, K.: Gadamer In Ency. of Philosophy, P. 429.
(2) Schmidt, D.: "Gadamer" ….. P. 434-435.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفقًا لمعايير الفلسفة السائدة في العصر الحالي، فإذا ما تأملنا – مثلاً – موقفه من الفن واللغة وجدنا أن الفن عنده يمد الفلسفة بحدود الفلسفة ذاتها من حيث علاقتها بالحقيقة[١]، متأثرًا في ذلك "بهايدجر"، كما رجع إلى رأي الأخير في أن "اللغة بيت الوجود"، وأن "الكلام هو الأساس الوجودي للغة"، كما سنبينه تفصيلاً بحيث يمكن القول بأن تفسير "جادامر" للكلام واللغة يتأسس على تصور تم توضيحه تمامًا في كتاب "الوجود والزمان" لهايدجر؛ حتى إنه يمكن الذهاب إلى أن فلسفة "جادامر" امتداد للتصورات الهايدجرية أكثر من كونها تمثل "قطيعة" من هذه التصورات"[٢].

ب- المفاهيم الأساسية في الهيرمينوطيقا الفلسفية عند جادامر:

يمكن الإشارة إلى مفاهيم أربعة مترابطة تميز الهيرمينوطيقا الفلسفية عند جادامر: "**أولها** الوعي التاريخي الفعال[*]، ومعناه أن الوعي "يتأثر بالتاريخ"؛ أي ينفتح على مؤثرات التاريخ. والهيرمينوطيقا الفلسفية عند "جادامر" تحافظ على رؤية "هايدجر" الأساسية في "الوجود والزمان" التي تذهب إلى أن فهم الذات وإمكانياتها – بوصفها وجودًا – في العالم إنما هو فهم زماني، ويتخذ موضعه من التاريخ، إن الفهم – من ثم – يتكون بطريقة إيجابية من خلال تاريخيته الخاصة بدلاً من أن يكون مهددًا بها كما رأي مفكرو التنوير بعد ديكارت.

إن التأثر بالتاريخ معناه أنه لا توجد نقطة بدء من ذلك النوع الذي بحث عنه ديكارت، والانفتاح على مؤثرات التاريخ يتيح لنا مساءلة الفهم عن طريق النصوص والأعمال الفنية التي انتقلت إلينا عبر التراث.

لقد احتفظ "جادامر" بمفهوم أستاذه "هايدجر" عن "الدور الهيرمينوطيقي"[**] ليعبر بذلك عن المفهوم الثاني الذي يشير إلى أن أسلوب الفهم هو دومًا أسلوب غير مباشر يقوم بدور الوسيط[٣]، فضلاً عن أن المفاهيم والتصورات والأحكام المسبقة تلعب دورًا بنائيًا بالصورة التي نستخدمها في مشروع كلي مكون من أجزاء سواءً اتخذ ذلك المشروع صورة النص أم العمل الفني المراد تفسيره.

---

(1) Ibid., P. 435.
(2) Silvermann, H. J.: "Gadamer and Hermeneutics", P. 5.
(*) Wirkungsgeschichtliches Bewusstsein – Effecive Historical Consciousness.
(**) الدور الهيرمينوطيقي dass hermeneutische Zirkel.
(3) Wright, K.: "Gadamer In. Ency of Philosophy", P. 828.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رأى "جادامر" أن الأحكام المسبقة تؤثر في الفهم إيجابيًا، وأخطأ حينما أسرف في التأكيد على الأحكام المسبقة؛ إلا أنه لم يقصد عدم نقد تلك الأحكام التي تشوه فهمنا لنص ما أو لعمل فني ما؛ فلما كنا – بالأحرى – لا نستطيع الخروج من الدور الهيرمينوطيقي للفهم، ولما كنا نفترض رؤية بعيدة عن الحكم المسبق أينما كانت، فعلينا أن نهدف بدلاً من ذلك إلى أن نصبح أكثر وعيًا بموقفنا الهيرمينوطيقي الخاص بحيث يمكن للأحكام الجديدة والملائمة أن تؤدي دور الأحكام المسبقة الأقل ملاءمة، والأسبق زمانياً مما يعد شرطًا لفهمنا النص أو العمل الفني.

أما عن "المفهوم الثالث" فهو مفهوم "اللعب" Spiel-Play-Game الذي استعاره "جادامر"، وحوله من استطيقا "كانط" فيما أسماه بـ "اللعب الحر للملكات العقلية". ولقد استخدم "جادامر" "اللعب" في نقطتين حاسمتين في كتابه "الحقيقة والمنهج" ليصف كيف تعلو الهيرمينوطيقا الفلسفية على المفهوم الذاتي في الاستطيقا والفلسفة الحديثة بصفة عامة، فتحدث "جادامر" أولاً عن "اللعب" في الفن ليوضح أن الذات الفردية غالبًا ما تفقد ذاتها من أجل معرفة حقيقة العمل الفني، وأنه على اللاعب الفرد أن يفقد تلك الذات كي يستغرق في اللعبة[١].

وعندما تحول "جادامر" – في الجزء الثالث والأخير من كتابه – إلى اللغة وسيطًا للخبرة الهيرمينوطيقية أسس اللغة ليس على وعي الذات المفردة، وإنما على "لعبة اللغة" التي أطلق عليها اسم "الحوار".

وتؤدي بنا اللغة من صورة حوار إلى "المفهوم الرابع" للهيرمينوطيقا الفلسفية عند "جادامر" وهو مفهوم "اندماج الآفاق"[*]، ويعني أن فهم نص أو عمل فني ما يتضمن تحديًا بمقدار ما يشتمل ذلك النص أو العمل الفني على الحقيقة، أو ما يعتقد "المفسر" أنه يعبر عن حقيقة الموضوع المراد تفسيره. إن أفق "المفسر" في عملية الفهم يستبعد أولاً الحقيقة التي يفترضها النص أو العمل الفني، ثم يفتح أفقًا للموضوع المراد تفسيره بحيث يسمح له بمساءلة الأحكام المسبقة لدى المفسر عن الموضوع الذي يبحثه؛ وتلك المساءلة ما هي إلا "حوار" يقوم على السؤال والإجابة يفرضها العمل، ومع ذلك يسمح بما يحكم به المفسر مسبقًا على أن يكون حقيقيًا بحيث يمكن وضعه في صورة السؤال والإجابة عن طريق ذلك العمل[٢].

---

(1) Ibid., P. 829

(*) Horiziontverschmelzun, The Fusion of horizons.

(2) Ibid., P. 829.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن "اندماج الآفاق" الذي ينهي ذلك الحوار إنما يحدث عندما يفهم "المفسر" النص بصورة مختلفة، وقد يتطلب ذلك تغيير الأحكام المسبقة للمفسر وفقًا لما يمليه عليه النص أو العمل الفني المراد تفسيره، كما يعني "اندماج الآفاق" أيضًا التأكيد مرة أخرى على الأحكام المسبقة الأصلية لأسباب مختلفة ما دامت تبقى على "التحدي" اللازم للحكم بطريقة مختلفة على موضوع التفسير"[١].

تعقيب:

على الرغم من أن "جادامر" قد أكد مرارًا على التمييز بين الهيرمينوطيقا الفلسفية بما لها من أصول في الأنطولوجيا الهيرمينوطيقية عند هايدجر، والهيرمينوطيقا كتقنية للتفسير، فإن موقفه يمثل بوضوح تحديًا للتفسيرات التقليدية فيما يلي[٢]:

أولاً: أن "الانفتاح" هو السمة المميزة لهيرمينوطيقا جادامر عمومًا، فما من نسق أو منهج يمكن تطبيقه، وما من كلمة أخيرة يمكن أن تقال بشأن هذه الهيرمينوطيقا، وإنما يبقى دائمًا الاعتقاد العميق بأن قانون التفسير يضرب بجذوره في جزئيات كل خبرة، وأن هذا القانون لا يمنع من الانفتاح على التراث، والكشف عما هو جديد[٣].

ثانياً: أن طبيعة الهيرمينوطيقا عنده تتمثل في إمكانية "وضع الأسئلة"، ويظهر ذلك بوضوح في حواره مع الفلاسفة اليونان، وغيرهم من فلاسفة الحقبة الحديثة والمعاصرة، بحيث يمكن القول بأن هيرمينوطيقا "جادامر" تقف عند حدود الفلسفة، وتكرس نفسها لتجربة الممكنات.

ثالثاً: أن مفهوم "تناهي الخبرة"(*) في هيرمينوطيقا جادامر فيما يتعلق باللغة يختلف بوضوح عن مفهوم هايدجر عن التناهي، حيث أراد "جادامر" للغة أن تكون تجربة متناهية فحسب، ومع ذلك فلن يمنع ذلك من انفتاح إمكاناتها المتعالية[٤].

رابعاً: في "الحقيقة والمنهج" امتد "جدل الكلمة" – كما سنرى تفصيلاً – إلى الجدل الهيرمينوطيقي بما هو كذلك. يقول "جادامر": إن في الخبرة الهيرمينوطيقية شيئًا ما يشبه الجدل، ولا يتضح ذلك الشئ، بالنسبة للخبرة من دون مجهوده الخاص؛ فالكشف عن مجموع المعاني التي يدور حولها الفهم يضطرنا إلى "حدس" يحاول

---

(1) Ibid.
(2) Outwaite, W.: In Biographical Dictionary of 20th "Century Philospophers", P. 262.
(3) Schmidt, DD.: "Gadamer" In A Companion … P. 433.
(*) Finitude of Experience.
(4) Ibid., P. 439.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استردادها مرة أخرى، إن الإلغاء الذاتي للتفسير يمكن الشئ ذاته أو معنى النص من تأكيد التعبير عن نفسه".

وجدير بالذكر أن حركة التفسير ليست جدلية أساسًا، لأن المنظور الأحادي للعبارة يمكن أن يتوازن مع منظور آخر فيما يعبر عن ظاهرة ثانوية في التفسير؛ ولكن الأهم أن الكلمة التي تواجه بصورة تفسيرية معنى النص تعبر عن المعنى في كليته؛ أي تسمح بمعان لا متناهية لكي تتمثل بطريقة متناهية؛ كما أن التصورات المرتبطة بكل كلمة تؤدي إلى التفاعل الجدلي بين التعبيرات المتناهية عن معان لا متناهية، وهي بمثابة جذور لما يصفه جادامر "بالطبيعة التأملية للغة"(١).

خامساً: هيرمينوطيقا "جادامر" تبحث في الأصول التي هي أساس كل خطاب أو فعل؛ فالعودة إلى "أصل" الشئ ذاته في ظاهريته هي محرك فكر "جادامر" الهيرمينوطيقي، وهو متأثر في ذلك بأستاذه "هايدجر" الذي سعى في "الوجود والزمان" إلى البحث عن الأصل الفينومينولوجي في أنطولوجيا الوجود الإنساني والوجود بما هو كذلك – إذن للهيرمينوطيقا عند "جادامر" مهمة علاجية، فهي تحضر في عمق طبقات النص بهدف إدراك المعنى الأول الذي صيغ في البداية(٢).

ثانياً: هيرمينوطيقا الحوار وماهية الفكر عند جادامر:

يقول جادامر في "الحقيقة والمنهج":

"ما من أحد ينكر أن لغتنا تؤثر في فكرنا؛ فنحن نفكر من خلال الكلمات، والتفكير هو تفكير في شيء ما، والتفكير في ذلك الشيء هو بمثابة "قول" شيء ما للذات"... ولقد كان أفلاطون محقًا – كما اعتقد – في أن يسمى ماهية الفكر حوارًا داخليًا للنفس مع ذاتها(*)... وهذا الحوار ... هو بمثابة تجاوز مستمر للذات، وعودة لها، ولآرائها ووجهات نظرها الخاصة"(٣).

يتضح من ذلك النص أن التفكير يستلزم الحوار؛ فعندما نفكر في شيء ما، تدخل في حوار مع أنفسنا، وهو ما عرفه "أفلاطون" عندما تحدث عن الحوار بين النفس وذاتها

---

(1) Davey, R., N.: A Response to P.C. Smith, In "Gadamer and Hermeneutics", P. 52-53.

(٢) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا جادامر" – ترجمة كاميليا صبحي، مجلة فصول... ص١٥٤-١٥٦.

(*) The Interior dialogue of the soul with itself.

(3) Gadamer, Hans, Georg: "Truth and Method", trans. By J. Weinscheimer & D. G. Marshall, 2nd edit., The Contiuuum Publishing Company, New York, 1998, P. 542.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في محاورتي السوفسطائي وثياتيتوس على سبيل المثال، مما يفسر لنا قول "جادامر" بأن اللغة حوار[*] مع الآخر أو الدخول معه في نقاش[١].

ويمكن القول بأن الفلسفة الهيرمينوطيقية عند "جادامر" دفاع عن الفهم من خلال الحوار مع النصوص ومؤلفات الآخرين، فضلاً عن أن مفهوم الحوار في صورة السؤال والإجابة مأخوذ من "أفلاطون"، ومثل هذا الفهم لا يكون أبدًا معرفة مطلقة؛ إنه متناه لأنه مرتبط بموقفنا التاريخي، وهو جزئي، لأننا نهتم بتلك الحقيقة التي نسعى إلى فهمها[٢]، بحيث تحولت مؤلفات "جادامر" في الأعوام الأخيرة إلى السؤال عن إمكانية الحوار بين الموجودات الإنسانية التاريخية المتناهية، وخصوصًا في أوقات التحول العظيمة التي يحددها منطق التقنية[٣].

ومن جهة أخرى يتخذ "الجدل الأفلاطوني" مثاله من "الحوار السقراطي" مما يعبر عن أساس النظرية الهيرمينوطيقية عند "جادامر"، فالفهم عند "أفلاطون" يتم من خلال الحوار في صورة استفهامية وليس عن طريق الفكر الذاتي، بحيث يمكن القول – وفقًا لما يراه "جادامر" – إن "نموذج الحوار" في الفهم الهيرمينوطيقي يتميز بمضمون فلسفي خاص مما يعني أنه أكثر من مجرد القول Assertion-Aussage في عملية الفهم[٤].

يبين لنا ما سبق سبب اهتمام "جادامر" بعرض موضوع اللغة في الجزء الثالث من "الحقيقة والمنهج" من خلال موضوعات ثلاثة كما يلي: اللغة[**]كوسيلة للخبرة الهيرمينوطيقية، واللغة كتحديد للموضوع الهيرمينوطيقي، واللغة كتحديد للفعل الهيرمينوطيقي مما سنبينه تفصيلاً[٥].

(*) Sprache ist Gesprach – Speech is speaking.
(1) Smith, P.C.,: Plato As Impulse and Obstacle in Gadamer's Development of A Hermenutical Theory", P. 34.
(2) Wright, K.: "Gadamer" In Routledge Ency. of Philosophy, P. 827.
(3) Schmidt, D.,: "Gadamer" In A Companion… P. 440.
(4) Davey, R. Nicholas: A Response to .C. Smith, P. 43.
(**) تترجم كلمة Sprache إلى Language أو "لغة"، وتحمل إشارة غامضة إلى Lingua أو Tongue أو اللسان الذي نتحدث بواسطته لغة ما، وفي ذلك ارتداد عن طريق التفكير الذي أراد جادامر أن يتجاوزه، والذي تكون فيه الأولوية للكلمة المكتوبة على الكلمة المنطوقة.
(C.P. Smith, P.C.: Plato as Impulse P. 28).
(5) Ibid, P. 45.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ- هيرمينوطيقا الحوار(*) الأفلاطوني عند جادامر:

يرى "جادامر" أن اللغة تستمد وجودها الحقيقي من خلال "الحوار"، والحوار الأفلاطوني في قراءة "جادامر" له إنما هو بمثابة دافع Impulse بما يحمله من مساءلة وانفتاح يعبر عن طبيعة الحدث، فضلاً عن أنه عائق Obstacle يشير للموضوعي، والمقدس، وما ليس له طبيعة الحدث مثل المعنى، علمًا بأن الكلمات ليست أدوات لتحقيق شئ ما؛ فالكلمات تسمى الأشياء، ولسنا نحن الذي نقوم بذلك كما سيأتي بيانه(١).

يقول جادامر:

"السؤال الذي قمت بتوجيهه إلى نفسي هو كيف يمكن الحديث عن أخلاق في تصور أفلاطون للسؤال السقراطي والجدل السقراطي؟ لقد حاولت أن أوضح ذلك من خلال المنهج الفينومينولوجي، مما يعني العودة إلى المعنى الأصلي للجدل كما استخدمه أفلاطون، وهذا المعنى هو "فن إدارة الحوار"(**)، (٢).

ويقول في موضح آخر:

"تتساءل في عصر العلم عما إذا كان في وسعنا أن نتابع الميتافيزقا أو أن نتجاوزها كميتافيزيقا عملية. ولدينا في ذلك مهمتان: تتبع طريق المعرفة، والتفكير فيما وراء ما يقوله العلم. ذلك ما كان في ذهني عندما قدمت كتابي الأول عن فيليبوس أفلاطون في الأخلاق الجدلية عند أفلاطون... (٣) فإذا كان للغة وجود حقيقي في الحوار وحسب، فإن الحوار الأفلاطوني سوف ينبهنا إلى حوار حي يحدث الآن، ويكون قد حدث من قبل، وسوف يحقق الاندماج المثمر لكل الآفاق التي تمكننا من العثور – من خلال التساؤل – على طريقنا في العالم"(٤).

يرى "جادامر" إنه يتعذر التفكير من خلال كلمات اللغة المنطوقة وحدها؛ فالحوار يتخذ موضعه ليس في فكر الأفراد، وإنما في النقاش الدائر بينهم.

(*) كلمة الحوار عند أفلاطون dialectic مستمدة من الكلمة اليونانية dialegethai وتترجم بالإنجليزية إلى talking something through.

(1) Silvermann, H. J. "Gadamer", P. 4.

(**) The art of leading a conversation.

(2) Gadamer, H. G: Gadamer On Gadamer, trans. By Bright Schaaf and Gary E. Ayleworths in "Gadamer and Hermenutics" edit., by Silvermann, H. J., P. 15.

(3) Ibid, P. 19.

(4) Ibid.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ناحية أخرى لما كان الفهم Verstehen-Understanding يقوم على الحوار مع شخص آخر أو مع الذات .. إلخ، فإن الفهم لا يصبح شيئًا نحققه نحن أنفسنا، بقدر ما يحدث من خلال ذلك الحوار[١].

وإذا نظرنا بعين الاعتبار لاهتمامات "جادامر" الهيرمينوطيقية لوجدنا أن بنية الحوار توضح فهم النص، بمعنى أننا نصل إلى الفهم من خلال الحوار المتسائل والمتبادل بين "مفسر النص" من جهة و"النص" من جهة أخرى[٢]، فإذا اعتبر "المفسر" النص إجابة عن سؤال يثيره آخرون، فإن مهمته هي إعادة بناء هذا السؤال ولكن ليس بصورة أساسية، يقول "جادامر" في ذلك:

"علينا أن نبدأ بالسؤال الذي يضعه النص أمامنا، حيث نتأثر بالكلمة التي انتقلت إلينا من التراث وتحدثت إلينا، هذا النص أو العمل أو الأثر ذاته هو الذي يضع السؤال، وهو الذي يفتح الطريق أمام اعتقاداتنا المتعلقة بالسؤال، والإجابة عن هذا السؤال الموضوع أمامنا "نحن السائلين" بحيث يجب أن نبدأ في سؤال أنفسنا".

يتضح مما سبق أن "هيرمينوطيقا جادامر" تتخذ نموذجًا لها من "الحوار السقراطي" المتمثل في السؤال والإجابة بين الواحد والآخر، بحيث نستعيد ذلك الآخر من حالة الاغتراب، ونعيده إلى الحضور الحي حيث الحوار الذي يتحقق دائمًا وبصورة أصلية في السؤال والإجابة[٣].

فسر "جادامر" العلاقة بين اللغة المنطوقة والمكتوبة[*] عند "أفلاطون"؛ فالأدب – مثلاً – مكتوبًا يكون في حال من الاغتراب، وما هو مكتوب يعبر عن صورة مغتربة، ويتم تجاوز هذا الاغتراب عن طريق "قراءة النص" الذي هو أسمى مهمة للفهم، حتى إن المحتوى الخالص للإشارات والعلامات يمكن أن نراه رؤية صحيحة، ونحدده عندما يُمكننا أن نحول النص إلى حوار، والواقع أن كلا من "أفلاطون وجادامر" قد أراد تحويل الكلمة المكتوبة إلى حوار؛ فكلاهما رأى الكتابة نموذجية بمقدار ما تنتزع نفسها من أي متحدث، وذلك في مقابل ما يحدث لها من تحول شفهي في مهمتها[**]؛ ويرى "جادامر" أن كل ما هو مكتوب هو في الواقع موضوع مميز للهيرمينوطيقا"[***]، ولا يعني ذلك أن الحوار

---

(1) Smith, P.C.: "Plato As Impulse…..", P. 34.
(2) Ibid, P. 37.
(3) Ibid., P. 38.
(*) What is written-schriftlichkeit.
(**) An Oral Transmission.
(***) "Everything written is in fact the privileged object of hermeneutics".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينبغي استبداله بالكتابة؛ وإنما بالأحرى أن ذلك النوع من الكتابة ينزع إلى أن يتغير إلى حوار، ويُفهم بوصفه حوارًا، كما يرى أن رفض "أفلاطون" للكتابة لم يكن إلا رفضًا ظاهرياً ويصعب تفسيره على أنه رفض حقيقي، وعندما يقول "أفلاطون" في محاورة "فايدروس Phaedrus" على سبيل المثال بأن الكلمة المكتوبة لا يمكن أن تدافع عن ذاتها، فهو إنما يقوم برد فعل تجاه محاولة السوفسطائيين تفسير نص ما بحيث يؤيد الرأي ونقيضه في الوقت نفسه. مما يشير إلى أن السوفسطائيين قد أساءوا استخدام الكتابة من وجهة نظر أفلاطون.

والحق أن "الكلمة" يمكن حمايتها من أي استغلال دوجماطيقي إذا قرأناها قراءة صحيحة، بحيث يرى "جادامر" أن الحوار الأفلاطوني المكتوب يفتح المجال أمام السؤال بمنأى عن الإجابة، بعبارة أدق فإن هذا الحوار يجذبنا إلى عملية مستمرة من المساءلة[١].

وجدير بالذكر أن كلمة "الحوار" عند أفلاطون – كما يرى "جادامر" – تحمل معنى الواحد والكثير في آن واحد، وأن هذه الكلمة يتكشف معناها في الحوار التفسيري، وأنها تمثل الخبرة الخالدة فينا عن الأشياء ذاتها التي نتحدث عنها كما جاء في محاورة فيليبوس Philebus، أما في ثياتيتوس Theaetetus فيوضح لنا "أفلاطون" كيف يحدث هذا الكشف الذاتي للكلام[*] أو للوجوس Logos، وهذا الكشف يبين أثر الحوار فينا[٢].

ويمكن القول بأن أفلاطون يمثل "دافعًا" و"عانقًا" في توضيح طبيعة الحوار الفعالة في فهم شيء ما وتفسيره، فهو بمثابة "دافع" لنا ما دام يتحدث في حدود خبرتنا باللوجوس الذي أخبرنا عنه سقراط في "فايدروس Phaedro" وهو "عائق" عندما يتجاوز حدود الحديث إلى رؤية منعزلة عن الصورة الخالصة أو المثال eidos؛ حيث تصبح الكلمات المنطوقة مجرد علامات أو إشارات، فينغلق أمامنا الطريق[٣].

ويعني ذلك أن الجدل الأفلاطوني سوف يعلو بنا إلى تفكير خالص في المثل، وهذا التفكير بلا صوت (غير منطوق) أي إلى معايير غير منطوقة لا ينبغي أن ننصت إليها، وإنما نراها.

ويرى "جادامر" أن الجدل الأفلاطوني سوف ينأى بنا عن كل كلام -Logos Utterance، أي وراء كل صوت منطوق، فما يمكن الاستماع إليه عند أفلاطون لا يدل

---

(1) Ibid, P. 38-39.
(*)The self-unfolding of speech.
(2) Ibid, P. 39.
(3) Ibid, P. 41.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالضرورة على الحقيقة. ويرى أن تحقق فكرة ما إذا أدركناها – في صورة حوار للنفس – تدل في حد ذاتها على أن عملية التفكير مرتبطة بالحوار[١].

ويترتب على ذلك أن طبيعة "الكلمة" يتم تحريفها إذا انحصرت في كونها "أداة" بلا قيمة معرفية خاصة بها نستخدمها للإشارة إلى واقع سبق وجوده. إن الكلمة في حد ذاتها لا تعني شيئًا، وإنما تعني شيئًا آخر بخلاف ذاتها، وإذا ما ركزنا على هذه الوظيفة الخاصة بالكلمة – كما فعل أفلاطون في "كراتيلوس Cratylus" – فإن انفصام الكلمة عن الواقع الذي تعنيه سوف يصبح النتيجة الحتمية ولا يمكن تجنبها، وعلى ذلك يرى "جادامر" أننا في طريقنا لفهم الكلمات كعلامات، بحيث ينبغي أن تصبح الوظيفة الأصلية للكلمة داخل اللوجوس في الحوار في مكان الصدارة.

ذهب "جادامر" إلى أن السؤال الأصلي عند "أفلاطون" فيما يتعلق بالحقيقة لا يدور حول الحقيقة بوصفها "لوجوس" أو "كشف عن وجود الشيء أو عن الموجود"[٢].

ويقول جادامر بهذا الصدد:

"**الخبرة تكون بلا كلمات أولاً، ثم تتحول إلى موضوع للتأمل أو التفكير عندما نطلق عليها الاسم، أي عندما ندرجها تحت عالمية[*] الكلمة، علمًا بأن الكلمة ف مقابل العلامة (sign) ليست أداة نستخدمها للحصول على شيء نقوم به، ونحن لا نسمي الأشياء، وإنما الكلمات نفسها هي التي تفعل ذلك**"[٣].

وبعبارة أخرى فإن الخبرة ذاتها تبحث عن الكلمات المعبرة عنها؛ فنحن نبحث عن الكلمة الصحيحة أو الكلمة الملائمة حقًا التي تعبر عن موضوع التفكير، ونحن نفكر في الكلمة منطوقة لا بوصفها محاكاة، وإنما بوصفها تكملة للشيء الذي يأتي إلى الوجود، وبذلك تكون "الكلمة" مقابلاً "للمثال" الثابت عند أفلاطون؛ فهي حدث يتصف بالحركة[٤].

ويمكن القول – بناءً على ما سبق – إن كل فهم تفسير، وكل تفسير وكل تفسير يتخذ موضوعه من وساطة اللغة التي تسمح بأن نعبر عن الموضوع بالكلمات، وإن التفسير مثل الحوار يقوم على جدل السؤال والإجابة، أما ما يميز كل حوار حقيقي. فهو

---

(1) Ibid.
(2) Ibid, P. 29.
(*) Universality – Universalitat.
(3) Ibid, P. 29.
(4) Ibid, P. 30.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انفتاحه على الآخر، وقبوله وجهة نظر الآخر باعتبارها جديدة بالاعتبار، والنفاذ إلى ذلك الآخر لا باعتباره موجودًا جزئيًا، وإنما باعتباره ما يقوله[١].

الحقيقة عند "جادامر" تنتمي إلى الحوار واللغة، واللغة بدورها لا نعثر عليها في المعاجم وإنما في الحديث والكتابة[٢]، بحيث يصدق الرأي القائل بأن "من لم يفهم الشيء، لا يكون قادرًا على توضيح المعنى من خلال الكلمات"، ومع ذلك يفترض "جادامر" أن العكس أيضًا صحيح فكما يقول جئورجة:

إن تنكسر الكلمة

لا يوجد شيء[*].

فلا يكون هناك فهم للأشياء بمنأى عن اللغة، ولا فهم اللغة بمنأى عن الأشياء؛ وكلاهما ينتمي إلى الآخر: أما وجه القصور في اللغة الاصطناعية فهو القصور نفسه في الخصائص الكلية التي تفترض افتراضًا مسبقًا بأن المعرفة يمكن بناؤها قبل الخبرة[٣].

وفي هذا المقام يؤكد جادامر – مثل هسرل – على الكشف عن اللغة بوصفها "مرآة"، وفيها ومن خلال القدرة التأهيلية للغة يتخذ العالم لأول مرة شكله بالنسبة لنا[٤].

يقول جادامر في "الحقيقة والمنهج":

"... **تكشف وحدة الكلمة تدريجيًا من خلال الحوار.. كما يعبر تركيب اللوجوس Logos والفعل Verbum كما هو في تصور الجدل الأفلاطوني والأوغسطيني**[**] **عن التفكير والتأمل في مضمونه الجدلي**"[٥].

ذهب "جادامر" في "الحقيقة والمنهج" إلى أن ما يسميه "أفلاطون" بالجدل يعتمد – في الواقع – على اندراج اللغة تحت القول[***]، كما لاحظ في الجزء الثالث من هذا المؤلف

---

(1) Davey, R. N.: A Response to P.C. Smith, P. 46.
(2) Weinsheimer, J. C.: Gadamer's Hermeneutics: A Reading of Truth & Method", Yale Uni. Press, New Have & London, 1985, P. 231.
(*) Kein Ding Sei, Wo das Wort gebricht.
(3) Ibid, p. 231
(4) Smith, P.C.: Plato as Impulse…", P. 35.
(**) اعتبر اللاهوتيون المسيحيون أن حدث الكلمة The event of a word مماثلاً لمجئ المسيح، واتضح ذلك خصوصاً عند الأكويني، فالموضوع الذي شغله هو كيفية التفكير في التجسد Incarnation بوصفه تعبيرًا عن الكلمة. إن التجسد لا يمكن التفكير فيه على طريقة تفكير أفلاطون في النفس التي تسكن الجسد ومع ذلك تبقى متميزة عنه، أي أن الإله يصبح إنسانيًا، ويعبر عن ذاته في صورة إنسانية (CP. Smith: Palto… P. 30).
(5) Gadamer, H.G: "Truth & Method" & Method, P. 457.
(***) Statement – Aussage.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن واقعية factuality الأنطولوجيا اليونانية تقوم بصورة حاسمة على واقعية اللغة في أنها تدرك ماهية اللغة في ضوء القول.

وعلى ذلك يجب التأكيد على أن للغة وجودها الحقيقي فقط في "الحوار" أي من خلال ممارسة عملية الفهم بين البشر كما يرى "أفلاطون"؛ أما "جادامر" فيرى أن استخدام القول في عملية التواصل بين البشر يشوهه، أي أنا ما يبقى داخل إطار "المقال" لا يحقق بعد الخبرة اللغوية بالعالم(١).

وإذا كان "أفلاطون" دافعًا وعائقًا في تطور "جادامر" الهيرمينوطيقي كما سبق القول؛ فهو "عائق" بسبب الرأي القائل بأن "ما تكون عليه الأشياء "ينكشف" بصفة أساسية وراء ما يقال(٢)(*). وعندما تتحول هذه الأشياء إلى علامات أداتية، فإن واقعها لم يتحقق بعد في الوجود، وبالتالي يحجب مذهب أفلاطون في المثل الطبيعة الصحيحة للحديث واللغة، ومع ذلك فإن "جادامر" الذي وجه نقده إلى الكلمة المنطوقة المجردة في جدل أفلاطون عن المثل أشار أيضًا إلى نموذج Paradigm الجدل الأفلاطوني في نظريته الهيرمينوطيقية؛ حيث إن هذا الجدل يتضمن الحوار Gesprach وليس مجرد اللغة Sprache؛ علمًا بأن الحوار يعبر بصدق عن الطبيعة الأصلية للغة قبل أي شيء آخر(٣)؛ أي أنه من خلال "الحوار" ينفتح موضوع النقاش كما لم ينفتح من قبل.

ويمكن القول بأنه منذ أفلاطون وحتى هيجل تتألف الحقيقة من الكشف الكلي عن الشيء أو حضورها الكامل أمام العقل اللامتناهي، وعندما يقترب العقل الإنساني من هذا اللامتناهي، يعرف الحقيقة، علمًا بأن طريق الجدل هنا ليس مباشرًا؛ وإنما يتقدم للأمام عن طريق عكس اتجاهه باستمرار، ويعبر ذلك في الفكر اليوناني عن "جدل اللوجوس" الذي يتبع المسار الجدلي للشيء ذاته.

وعلى العكس من ذلك نجد أن الجدل عند "جادامر" ليس مجاله المجال الصامت اللوجوس، وإنما اللغة المنطوقة، ولا يقوم على التعارض بين القول ونقيضه، وإنما على التبادل بين الحوار والجدل، أو على السؤال والإجابة أكثر منه على القول.

ويعني ذلك أن الخبرة الهيرمينوطيقية التي هي نموذج لخبرتنا عن العالم تشغل مكانها من اللغة، وتتكون من الحوار مع النص ذاته لغويًا، أو من "اللعب" بين "المفسر"

---

(1) Davery R. N.,: "A Response to P.C. Smith", P. 43.
(2) Ibid. P. 44.
(*)What things are … is originally uncovered in what is said".
(3) Ibid.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و"النص" الذي تتوجه إليه باستمرار التفسيرات على اختلافها، وهذا اللعب ليس أقل أهمية من العملية الجدلية الخاصة بالسؤال والإجابة، والسبب وراء ذلك هو أن "المفسر" من ناحية يضع سؤالاً عن النص ويتوقع إجابة عنه، كذلك يصنع "النص" وتساؤلاً أمام المفسر، وبذلك يصبح المفسِّر مفسَّرًا في الخبرة الجدلية الهيرمينوطيقية عند "جادامر"[١].

ولكن الاختلاف الحاسم بين الهيرمينوطيقا وفلسفة اللوجوس هو أنه في الحوار الهيرمينوطيقي يتم حدوث الحدث، وفي ذلك التراث لا تتم مساءلته فقط، وإنما يتم إنماؤه وإنتاجه، والتفسير يسهم في ذلك، وينتمي بدوره إلى التراث، بحيث يمكن القول بأن التفسير الهيرمينوطيقي حدث يتم في التراث، وعملية التفسير تعني أنه لم يتم الكشف عن شئ ما، أو أن شيئًا لم نكتشفه بعد، حتى ولو كان ذلك يعني أن الشيء الموجود مسبقًا هو الآن "محتجب" مثله في ذلك مثل الشي في ذاته. والدليل على ذلك أنه قبل التفسير لا يوجد التراث بالطريقة التي نفهمه بها الآن؛ مما يعني أن الهيرمينوطيقا – عند "جادامر" – ليست غائية؛ أي أنها لا تؤدي إلى هدف ما، وإنما تتقدم للأمام، وهي في ذلك لا تتقدم نحو أي كشف كامل عن الشيء أو عن حضوره أمام العقل اللامتناهي.

إن أسلوب وجود التراث اللغوي ليس الحاضر وإنما التاريخ، إنه دائماً "يتشكل" في حدث التفسير بصورة إيجابية[٢].

ب- تأثير هايدجر في هيرمينوطيقا الحوار عند جادامر:

يتضح مما سبق أن "جادامر" قد تأثر بمفهوم "هايدجر" عن حقيقة اللغة كما جاء في "الوجود الزمان"؛ فالقراءة المتأنية لهذا المؤلف الضخم تكشف عن أن اللغة تؤدي دورًا أساسيًا في الهيرمينوطيقا الأنطولوجية عند هايدجر؛ ذلك أن الآنية Dasein أو الوجود الإنساني في العالم كموجود فاهم يتأسس – عند هايدجر – على الكلام أو الحديث[*]، ولكن اللغة يكون لها وجودها الحقيقي فقط، لأن العالم يتكشف من خلالها.

ومن ناحية أخرى يمكن مقارنة تمييز "جادامر" للحوار بوصفه أصل الأساليب اللغوية في الاتصال من القول والقضية عند "هايدجر" في كتابه "الوجود والزمان" حيث يشير إلى أن لصياغة العبارة الحملية والخبرية في صورة قضية مكانة ثانوية بالنسبة للتفسير[٣].

---

(1) Weinscheimer: J.C.: "Gadamer's Hermeneutics", P. 250.
(2) Ibid.
(*) Discourse.
(3) Davey N.P.: "A Response…", P. 48-49.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرى "هايدجر" في "الوجود والزمان" أن الكلام يؤسس وجود الآنية، وأن الكلام هو الأسلوب الدال على معقولية الوجود – في – العالم، فضلاً عن أن الوجود – بالاشتراك ينتمي إلى الوجود – في – العالم، والذي يشير في كل الأحوال إلى ذاته بطريقة محددة من خلال الوجود المهتم بالآخر، ويؤكد "هايدجر" أن الوجود – معًا أو الوجود بالاشتراك ذو سمة كلامية(*). ويعني ذلك أن هايدجر يرى أن الحديث أو الكلام هو الأساس الأنطولوجي للغة، كما أن التأثر الوجداني والفهم يؤسسان اللغة أنطولوجيًا.

ويمكن القول بأن أبعاد الحوار في الكلام عند "هايدجر" بوصفها وجودًا – معًا لا تتوقع فحسب العنصر الجدلي في تصور "جادامر" للحوار، وإنما تتوقع أيضًا الكشف الأنطولوجي الذي بين أن "الكلام" يلقى الضوء على فهم جادامر "للغة" من حيث كونها إحضار الأشياء إلى الوجود من خلال الحديث عنها(١).

ج- مفهوم الانتماء وحضور المعنى عند جادامر:

هيرمينوطيقا الحوار الأفلاطوني عند "جادامر" تفترض أننا لا ندير هذا الحوار بطريقة منتظمة هندسية؛ بل بالعكس فنحن نحيا اللعبة، ونخاطر بالقول، والافتراض والرفض، ونحن مع ذلك نتقدم في طريقنا من أجل الوصول إلى الفهم.

ويعني ذلك أن المهمة الحقيقية عند "جادامر" يمكن أن تتمثل في الشعور بفاعلية المعنى بأسره، وفاعلية السياق الذي يتحرك من خلاله الحوار حتى إن لم يتبع منطقًا محددًا، مما يوضح علاقة التوتر بين الفلسفة والحقيقة بوصفها كشفًا(٢)ــ بحيث يمكن القول بأن:

"**حضور لغة المعنى يشير إلى تركيب أنطولوجي كلي، أي إلى الطبيعة الأساسية لكل شيء، والتي يمكن أن يُوجه نحوها الفهم**"(٣). على ما يرى جادامر.

يقول جادامر في "الحقيقة والمنهج":

"**يمكننا الآن أن نعرِّف بصورة أكثر دقة فكرة الانتماء(**)على أساس التجربة اللغوية المؤسسِّية للعالم ... ويعرضنا ذلك لعدد من الموضوعات ألفتها الفلسفة منذ عهد بعيد؛ ففي الميتافيزيقا يشير "الانتماء" إلى العلاقة الترانسندنتالية بين الموجود**

(*) Discoursive – Rede.
(1) Ibid, P. 48.
(2) Ibid, P. 45.
(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method" P. 474.
(**) Zugehorigkeit – Belonging

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحقيقة، وهي تدرك المعرفة بوصفها عنصرًا خاصًا بالموجود ذاته، وليس بوصفها نشاطًا للذات بصفة أساسية. إن هذه المعرفة المتجسدة المتعينة في الموجود هي بمثابة الافتراض المسبق في الفكر الكلاسيكي والوسيط بأسره؛ فما يوجد هو بحسب طبيعته "حقيقي"؛ أي حاضر بالنسبة للعقل اللامتناهي، ولهذا السبب وحده يمكن لتفكير العقل المتناهي(*) معرفة الموجودات.... [1]. (إلا أن) مفهوم الانتماء لم يعد معبرًا عن العلاقة الغائية بين العقل والتركيب الأنطولوجي لما يوجد كما كان الأمر في الميتافيزيقا؛ ذلك أن حالة جد مختلفة تنشأ من أن التجربة الهيرمينوطيقية تجربة لغوية من حيث طبيعتها (بمعنى) أن هناك حوارًا بين التراث والمفسر. والأمر الأساسي هنا هو أن شيئًا ما يحدث(**)، وأن عقل المفسر لا يحيط بكل ما يصل إليه من التراث... أما العقل اللامتناهي فهو يحتوي على كل ما يتحدث به التراث بأسره.. ومن وجهة نظر المفسر لا يعني "الحدوث"(***) أنه يبحث عن معرفة موضوع مكتشفًا عن طريق الوسائل المنهجية المعنى الحقيقي المقصود على الرغم من المعوقات التي تؤثر فيه في صورة فروض وأحكام مسبقة؛ فذلك مجرد جانب خارجي للحدوث الهيرمينوطيقي الفعلي... إن الحدوث الفعلي يكون ممكنًا فقط، لأن الكلمة التي تصل إلينا (تنتقل إلينا في صورة تراث، والتي ننصت إليها فعلاً تحيط بنا كأنما هي موجهة إلينا وتشاركنا اهتمامنا... (ويفسر لنا ذلك) كيف أن الحدوث الهيرمينويطقي يُدرك في جدل السؤال(***)[2].... (علمًا بأن) الجدل الأفلاطني (خصوصًا) ليس سوى فن الحوار، وهو يهتم بالكشف عن الأخطاء في آراء الناس من خلال عملية التساؤل المستمرة" [3].

ويعني ذلك أنه إذا كان الجدل "سلبيًا" يصاحبه ارتباك فيما يراه المرء، فإن هذا النوع من الإرباك معناه في الوقت نفسه "التوضيح"؛ لأنه يفتح عين الإنسان على

(*) سعي "جادامر" إلى إحلال مبدأ التناهي محل الحقيقة المعيارية غير المشروطة، واستلهم هذا المبدأ من بنية الأحكام المسبقة. وإذا كان "هايدجر" قد برهن على تناهي الوجود الحاضر (في) العالم في علاقته بالعالم، وتجربته في الفهم، فإن "جادامر" لم يلجأ إلى العلوم الإنسانية إلا لبيان تناهيها، واستحالة أي مبدأ كوني صالح لجميع العلوم. (قارن: محمد شوقي الزين، "عالمية هيرمينوطيقا جادامر"، ص ١٥٧).

(1) Ibid, P. 458.

(**) Etwas geschieht – something occurs.

(***) Geschehen – Occurrence

(****) Die Dialektik von Frage.

(2) Ibid, P. 461.

(3) Ibid, P. 464

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيء،... إن الشيء ذاته يؤكد فاعليته، وذلك إذا ما اعتمدنا كلية على قوة الفكر، وتغاضينا عن الآراء الواضحة الجلية.

كما يعني أن معنى "الانتماء" عند "جادامر" الخاص بالخبرة الهيرمينوطيقية يتعلق بجانب "الموضوع"؛ حي يشير " الحدوث" إلى أن الموضوع قد أصبح في مسرح الأحداث، ومحتوى التراث في إمكانيته الممتدة المستمرة من حيث الدلالة، والاستدلال عبر شعوب مختلفة تتلقاها[1].

ومن جهة أخرى فإنه يتم التعبير عن التراث من جديد بحيث إن شيئًا لم يكن موجودًا من ذي قبل قد أصبح الآن موجودًا، وهو موجود منذ الآن فصاعدًا، ويتضح ذلك من أي مثال تاريخي سواءً كان النص من التراث متخذًا صورة قصيدة أم حدث عظيم؛ ففي كل حالة يتحول النص ويتكشف من جديد؛ إذ إن الحوار الحقيقي عند "جادامر" ليس متضمنًا بالضرورة فيما ينص عليه المؤلف[2].

تعقيب:

يمكننا مما سبق التوصل إلى النتائج التالية:

أولاً: إن وجود "الحقيقة في المنهج" عند جادامر إنما هو وسيلة لقبول اللغة بوصفها حوارًا، والانتظار بوصفه تواصلاً، والفهم بوصفه مشاركة دالة، وعلاقة الأنا بالآخر ونحن بالتراث؛ أي أن كل "وجود" هو وجود من أجل الحقيقة "توجهه إرادة الفهم والحوار".

ثانيًا: إن أساس هيرمينوطيقا جادامر هو الفهم والحوار؛ فالفهم هو المفتاح الهيرمينوطيقي الذي يفتح المعنى، ويكشف آفاق الماضي والحاضر بما فيها من تشابك، وتتجلى إرادة الفهم في أن فهم المعنى داخلي؛ أما التواصل أو "الحوار" بين الماضي والحاضر فخارجي.

فإذا كان الفهم هو فن تطبيق المعنى الذي اكتشفناه على موقفنا، فهذا يعني أنه فن صياغة إشكالية للحاضر، وصياغة جدل السؤال والجواب بوصفه تساؤلاً دائمًا وغير مكتمل نطرحه على حاضرنا؛ إنه "تساؤل" متبادل يبرز حقائقهما المتبادلة.

---

(1) Ibid, P. 461.
(2) Ibid, P. 462

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً: اللغة عند "جادامر" ليست مجرد نظام لغوي يخضع لبعض القواعد، وبه جلاء داخلي؛ ولكنها في الأساس "حوار"، وعلاقة "بالآخر" لإرساء مبدأ الفهم كمشاركة، والجدل أساس كل حوار، والمقصود هنا جدل السؤال والإجابة كفعل غير مكتمل، فيتعين من ناحية الإنصات إلى الصوت الداخلي، كما سيأتي بيانه تفصيلاً؛ فهو انطباع سيتحول إلى تعبير، ويتعين كذلك التواصل مع الآخر رغبة في الحوار والفهم.

رابعًا: إن الحوار محل تقييم دائم وتحديث لمعناه بحيث يلائم للحظة الراهنة، ومن هنا تبدو الحقيقة "مشاركة إبداعية" بعيدة عن أي افتراض أو تملك، وهي ليست لحظة متعالية أو مطلقة أو منغلقة؛ ولكن إبداع دائم للقيم والمعاني والرؤى التي يتم دائمًا إعادة النظر فيها ونقدها(١).

ثالثًا: الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة:

كتب "جادامر" عبارة شهيرة في كتابه الحقيقة والمنهج" يقول فيها:

"الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة(*) فالظاهرة الهيرمينوطيقية هنا تُوجه كليتها الخاصة إلى التأسيس الأنطولوجي لموضوع الفهم وتحدده بمعنى كلي بوصفه "لغة"، وتحديد علاقتها الخاصة بالموجودات بوصفها تفسيرًا ونحن هنا لا نتحدث فقط عن لغة الفن، وإنما أيضًا عن لغة الطبيعة، باختصار نحن نتحدث عن أي لغة خاصة بالموجودات أو الأشياء.. وليس من قبيل المصادفة أن نتحدث عن "كتاب الطبيعة" الذي يشتمل على كثير من الحقائق بوصفه "كتاب الكتب"(**) وما يمكن فهمه فيه إنما هو اللغة.. ويعني ذلك أن تلك الطبيعة تهب ذاتها كي تكون موضوعًا للفهم، وهنا أيضًا تتأكد البنية التأملية للغة.. إن حضور اللغة لا يعني الاحتياج إلى موجود آخر بالأحرى، فإن ما يظهره الشيء إنما ينتمي إلى وجوده الخاص؛ لذلك فكل ما هو لغة له وحدة تأملية، ويشتمل على تمييز بين وجوده وظهوره، ولكن ذلك التمييز ليس حقيقيًا على الإطلاق، (فضلاً عن أن) للأسلوب التأملي لوجود اللغة دلالة أنطولوجية كلية، ومن المؤكد أن ما يتم التعبير عنه من خلال اللغة يختلف عن الكلمة المنطوقة ذاتها؛ ولكن الكلمة تكون كذلك فقط بسبب ما يتم التعبير عنه من خلال اللغة، إن وجودها الفيزيقي الخاص يوجد

---

(١) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا جادامر ..."....، ص ١٥٨-١٥٩.

(*) "Being that can be understood is language".
"Seim das verstanden warden kam, ist sprache"

(**) "Es ist nicht von ungefahr, dass man von dem Buch der Nature Sprach, das… Wahrheit enthalte, wie das Buch der Bucher" (Vgl. Gadamer, H.G.: Wahrheit und methods", S. 479.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقط لكي يختفي فيما يقال، بالمثل ما يتحقق له الحضور عن طريق اللغة ليس شيئًا معطى من قبل اللغة، إنما هو بالأحرى الكلمة التي تحدده تحديد الخاص"[1].

أما عن عبارة "جادامر" الشهيرة " الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة" فهي بمثابة نتيجة أساسية من نتائج "الحقيقة والمنهج"، وتشير إلى أن مجال الفهم والهيرمينوطيقا يتسم بما تتسم به اللغة من شمولية وعالمية.

وجدير بالذكر أن هذه العبارة تذكرنا بعبارة "هايدجر" الشهيرة "اللغة بيت الوجود"[*]، كما يقتبس "جادامر" أيضًا المقطع الأخير من قصيدة "الكلمة" لشتيفان جنورجة كما سبق ذكره، وهو المقطع الذي اهتم به "هايدجر" اهتمامًا بالغًا في تفسيره للأصل الأنطولوجي للغة، هذا بالإضافة إلى أن "جادامر" عندما يذكر بأن "الحوار هو وجودنا"، أو هو نحن، فإنه يذكرنا بتفسير "هايدجر" لشعر هيلدرلين[2].

ومن ناحية أخرى يمكن القول بأن عبارة "جادامر" "الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة" تقترب من عبارة "شلايرماخر" القائلة بأن "كل ما تفترضه الهيرمينوطيقا هو لغة فحسب"[**]؛ ومع ذلك فالعبارتان مختلفتان؛ لأن الوجود مثلاً Sein – Being لا يتطابق مع كل شيء Alles – everything ومع ذلك فكلاهما ينتمي إلى الآخر، وهذا الاختلاف لا يمنع من تشابههما.

وما من شك في أن "شلايرماخر" لم يقصد أن يقدم أي قضية أنطولوجية؛ بل إن اهتمام "جادامر" الأساسي انصب على الوجود، وهو ما استمده من "هايدجر"، وعندما يقرأ "جادامر" شلايرماخر، فإنه يعيد قراءته من خلال أحكامه المسبقة، وخصوصًا من خلال "هايدجر" الذي يركز بدوره على تفسير المعنى، وخصوصًا معنى الوجود مما يربطه بالتراث "الهيرمينوطيقي" لدلتاي، علمًا بأن كلاً من دلتاي وشلايرماخر[***]قد أسهم في

---

(1) Ibid, P. 474-475.

(*) "Language is the house of Being".

(2) Weinscheimer., J.C.: "Gadamer's Hermenutics …….", P. 213.

(**)"Everything presupposed by Hermeneutics is Language only – "Alles Vorauszusetzende in der Hermeneutik ist nur Sprache" (Vgl. Gadamer, H.G.: W & M.S. 387).

(***) يشير شلايرماخر إلى منهجين في الخبرة الهيرمينوطيقية:

١- التأويل النحوي الذي يحلل النص انطلاقًا من لغته المتمثلة في الأطر اللغوية، والأشكال البلاغية والأدبية ومصطلحات النص التقنية، والألفاظ المستخدمة فيه جاعلاً منه "فن الوصول إلى المعنى الدقيق للخطاب انطلاقًا من اللغة وبالاستعانة بها".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تاريخ الهيرمينوطيقا، وأسهم في تغيير هذا التاريخ، ومن ثم في تغيير الهيرمينوطيقا[١].

ويمكن القول بأن النصوص حوادث تاريخية، ولذا ينبغي فهمها تاريخيًا من خلال ما ينتج عنها، مما يعني قراءة الماضي من خلال المستقبل.

ويبدو أن عبارة "شلايرماخر" السابقة تقبل عديدًا من التفسيرات؛ فهي عبارة شاملة تمامًا، أما عبارة "جادامر" فهي تبع حرفيًا قضية "شلايرماخر" مع أنها تمني المعنى المقابل؛ فهي تعني أن الأشياء يمكن فهمها عندما نعثر على كلمات لها، حيث يقول "جادامر" إن "الشيء يمكن بصعوبة فصله عن اللغة"، وبعبارة أخرى، فإن اللغة يمكن بصعوبة أن تنفصل عن الشيء المقصود.

وإذا كانت الهيرمينوطيقا – حسب التراث – تنسب إلى مجال النحو والبلاغة لأنها تهتم بفهم اللغة، فإن "جادامر" قد أكد على الوحدة بين الهيرمينوطيقا والجدل مما وسع من مجال الفهم كي يشتمل على الأشياء فضلاً عن اللغة، ومن ثم فإن التفسير هو التعبير اللغوي عن الفهم، والفهم هو فهم الأشياء، وعلى ذلك فإن التفسير يُدرك على أفضل الوجوه بوصفه العملية التي يتحد عن طريقها العقل والعالم من خلال اللغة.

وغني عن البيان أنه في الهيرمينوطيقا الأنطولوجية يُفهم الوجود بوصفه لغة[*][٢]، فالكلمة تُعطي للشيء، أو أن الكلمة قد وُجدت من أجل الشيء، كما أن فكرة العثور على كلمات للتعبير عن شيء ما تتضمن فكرة العثور على الكلمات الصحيحة حتى إذا كان العثور يعني مجرد اختيار كلمة من كلمات عديدة متاحة، فإن هذا القرار يفترض معيارًا للاختيار[٣].

يرى جادامر أن:

٢- التأويل النفسي والتقني انطلاقًا من سيرة الكاتب الذاتية التي يفهم النص من خلالها سواء كان مكتوبًا أم شفهيًا، فاللغة بقوتها المؤثرة تختفي ولا تظهر إلا كنظام يصيغه الإنسان في خدمته، والعلاقة بين هذين المنهجين تكاملية؛ إذ يستحيل فصل حياة الفرد عن فعله، ولذا فإن فهم النص يتطلب "أداة" لغوية فضلاً عن سياق بيوجرافي وتاريخي للوصول إلى مرتبة يصفها شلايرماخر بأنها "كاشفة" فيعيش فيه القارئ بعقله خبرات وأفكار الكاتب التي كانت وراء ميلاد العمل".
(قارن: محمد شوقي الزين: عالمية هيرمينوطيقا جادامر، ص: ١٥٤، ١٥٥)

(1) Ibid, P. 214-215.

(*) In Ontological Hermeneutics being makes itself understood as language".

(2) Ibid, P. 220.

(3) Ibid,

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"اللغة وسيط تلتقي عنده الأنا والعالم، أو بالأحرى يتضح من خلاله الانتماء الأصيل كل منهما إلى الآخر... فضلاً عن أن اللغة تقوم بعملية متناهية في مقابل الوساطة الجدلية اللامتناهية بين المفاهيم"[1].

ويعني ذلك أن "التفسير" عند "جادامر" يحاول العثور على الكلمات في لغة جديدة تتحدث من جديد لعصر جديد، فإذا كان التفسير هو أسس العلاقة، والعلاقة تتغير كما يتغير موضوع العلاقة، فلن يكون هناك تفسير صحيح في ذاته، فضلاً عن أن هذا المفهوم عن الوساطة بوصفها علاقة يؤدي مباشرة إلى المذهب النسبي Relativism، أي أن معنى الماضي الثابت نسبي إذا قارناه بالحاضر المتغير. وبينما ينكر "جادامر" إمكانية الوصول إلى تفسير صحيح واحد، فإنه ينكر حتمية الماضي التاريخي.

هذا ويمكن أن نميز بين أمرين: التفسير، وموضوع التفسير، أي أن التفسير لم يزل يصر على وجوده المستقل الخاص في مقابل موضوع التفسير الذي يرتبط بالحاضر المتغير كما سبق بيانه.

تعقيب:

ترتب على عبارة "جادامر" القائلة: "**الوجود الوحيد الذي يمكن فهمه هو اللغة**" ما يلي من نتائج:

أولاً: نقد "هابرماس" لجادامر الذي سبق الإشارة إليه؛ وفيه وصف هيرمينوطيقا "جادامر" بأنها "مثالية لغوية"، وفي المقابل أوضح "جادامر" من جانبه أنه لا يمكن استنفاد منابع اللغة، أو أنه لا يمكن للغة أن تقول كل ما عليها قوله، وتظل دائماً إمكانيات كامنة في القول، كما أنه لا يمكن التعبير عن اللغة أو تحديدها من خلال الكتبة فقط؛ لأنها تتخطى حدود التعبير والكتابة لتلعب من خلال الحوار والفهم دور الوسيط بين الأفراد، وبين الماضي والحاضر[2].

ثانيًا: كما ترتب على عبارة شلايرماخر القائلة: كل ما تفترضه الهيرمينوطيقا هو لغة فحسب" المعنى التالي:

قيام "مفسر النص" بإعادة تحقيق معناه من خلال فعل استنباطي وتخيلي؛ فيستعيد في ذهنه دوافع الكاتب الحقيقية المتجسدة في عمله في ضوء سيرته الذاتية، والظروف

---

(1) Gadamer, H.G: "Truth & Method", P. 474.

(٢) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا جادامر"، ص ١٥٩؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاجتماعية والتاريخية التي شهدت ميلاد عمله؛ فالفهم هو عملية تكرار للإنتاج العقلي انطلاقًا مما تبدعه العقول، وبهذا يتخطى "شلايرماخر" محتوى الحقيقة ليرسي دعائم تقليد منهجي دقيق(١).

ثالثاً: توصل "جادامر" متأثرًا في ذلك "بشلايرماخر" – إلى أننا عندما نؤول النص الفلسفي، فإنه توجد دومًا "وساطة" تضمن التواصل بين نظرتنا اللغوية للعالم ولغة النص.

فاللغة مجرد "وسيط يربطنا بالأشياء، وهو بلا شك ربط محدود؛ لكن يمكن أن غير نظرتنا، وأن نتمثل وجهة نظر أخرى داخل لغة أخرى"(٢).

رابعًا: هيرمينوطيقا الفهم واللغة:

يقول جادامر:

"... **لما كانت الخبرة الهيرمينوطيقية تتضمن حدث اللغة.. فهي تساهم أيضًا في الجدل وخصوصًا جدل السؤال والإجابة.. وإذا كان التفسير يبدأ من موضع ما، فهو ليس بداية حقيقية. (ومن ناحية أخرى) فإن الخبرة الهيرمينوطيقية تشير دائمًا إلى أن النص الذي نحن بصدد فهمه يتحدث من خلال موقف، ويتحدد ذلك الموقف في ضوء آراء مسبقة، وهذا الموقف الهيرمينوطيقي إنما يؤثر.. على إمكانية الفهم.. (فضلاً عن أن) الخبرة الهيرمينوطيقية تجعلنا نشارك في النص.. (ذلك أن) النص يتوجه بالنداء، والتفسير يحدث فقط بالطريقة التي يتم بها النداء، (كما أن) معنى التفسير يتحدد مثل كل استجابة عن طريق السؤال؛ بحيث يمكن القول) بأن جدل السؤال والإجابة يسبق دائمًا جدل التفسير، وهو الذي يحدد الفهم بوصفه حدثًا**"(٣).

ويعني ما سبق أن "النص التفسيري" عند "جادامر" يدعو إلى التفسير أو يحتاج التفسير، وقد يعني ذلك أن النص إما أن يلزم عن "خصوصية الوجود الإنساني" أو عن إمكانية تفسيره، وفي كلتا الحالتين تتضمن إمكانية التفسير افتراض أن النص لا يرتبط

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١٥٥.

(٢) هانز جنورج جادامر: "التأويل واللغة والعلوم الإنسانية" – ترجمة محمد شوقي الزين – مجلة فصول، المجلد السادس عشر العيد الرابع، ص ٣٤٢.

(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 471-472.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بقانون أو تحديد مسبق[١]، وأن مصطلح "ما هو تفسيري" يعني ما ينزع إلى التفسير[*][٢]، كما أن كل تفسير هو في الواقع تفسير تأملي Spekulativ-Speculative على نحو ما يرى "جادامر"، ولا يعني ذلك أن كل مفسر تأملي يكون واعيًا بالدوجماطيقا المتضمنة في قصده التفسيري الخاص؛ ذلك أن كل تفسير تأملي يصطبغ بصبغة عملية[**].

ويشير "جادامر" إلى أن المفاهيم المفسرة Interpretative Concepts ليست مجرد أدوات نتناولها ثم نلقي بها جانبًا عندما ينتهي النفع منها، وإنما تنتمي إلى التكوين الداخلي للموضوع الذي هو المعنى. وإذا كانت كل كلمة يتم التعبير عنها من خلال الفكر، فالكلمة المفسرة – إذن – ليست موضوعية[٣]؛ ذلك أن إدراك معنى الفهم هو فعل الوعي التاريخي، فالوعي تأملي بحق، وليس له وجود خاص؛ إن لغة المفسر – بلا شك – ظاهرة ثانوية، وهي لغة تنتمي مرة أخرى للغة بمعنى أنها تشتمل على كل أشكال اللغة استخدامًا وبناءً[٤].

يتضح مما سبق أن "الفهم" ليس مجرد انغماس المرء على مستوى الخيال في عالم النص، وإنما هو عملية ذات طبيعة تأملية وعملية تعمل من خلال الوعي، وتتأثر بالشروط الزمانية والتصورية بين النص والمفسر[٥]. وعندما يحدث الفهم الحقيقي؛ فإن لغة المفسر لا تهتم بذاتها، وإنما توجه اهتمامها للمعنى المقصود.

وإذا كان التفسير ساذجًا، فإن تصورات المفسر تُستخدم بطريقة غير واعية بذاتها كما لو كانت تُطبق بطريقة واضحة بذاتها، أما في التفسير المركب فيصبح عالم الحديث عند المفسر واعيًا، وتكون حدوده واضحة، ويمكن للمفسر أن يعدل من مفاهيمه، وأن يوسع من نطاق عالم الحديث عن طريقة الاندماج Fusion مع العوامل الأخرى التي يريد فهمها[٦].

يقود جادامر:

---

(1) Silvermann, H.J.: "Gadamer Hermenutics", P. 8-9.
(*) That which is subject to interpretation.
(2) Ibid, P. 5.
(**)All interpretation is speculative as it is actually practiced quite apart from its methodological self-consciousness.
(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 473-474.
(4) Ibid, P. 474.
(5) Outwaite, W.: Biographical Dictionary of 20th Century Philosophers, P. 262.
(6) Weinscheimer J.: "Gadamer's Hermeneutics….", P. 224-225.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

".. لا يمكن فصل الفهم عن اللغة، فاللغة تنتمي إلى العقل بكل المعاني...[*][1]، وللهيرمينوطيقا السمة الكلية نفسها الخاصة بالعقل واللغة[2]. ويبدو أنه لسي هناك ما يبرر النظر إلى عملية الفهم بمفردها بوصفها مجهودًا كامنًا للوعي الفيلولوجي الذي لا يكترث بحقيقة النصوص... إن القيمة الكاملة للخبرة الهيرمينوطيقية تشبه دلالة التاريخ للمعرفة الإنسانية عمومًا، حيث نواجه تراثًا يقول شيئًا ما. الفهم – إذن – لا يقوم على فهم تقني لكل ما هو مكتوب وإنما يقوم - بالأحرى – على تجربة أصلية، أي مواجهة شيء يؤكد ذاته بوصفه حقيقة.. (ذلك أن) ظاهرة اللغة والفهم تثبت أنها نموذج كلي للوجود والمعرفة عمومًا، وتمكننا من أن نعرف بدقة معنى الحقيقة في تفاعلها مع الفهم، فضلاً عن أن الكلمات التي تحضر الشيء للغة هي في حد ذاتها حدث تأملي[3]...، وفي نظريتنا الهيرمينويطقية نبحث في توضيح التفاعل المتبادل بين الحدث والفهم[4]....

والأمر مختلف تمامًا مع الوعي التاريخي الفعال حيث تصل الخبرة الهيرمينوطيقية إلى أوجها من خلال الانفتاح المطلق لحدث المعنى الذي تشارك فيه[**][5].

ويعني ذلك أن الأساليب التي نعيد من خلالها تفسير النص، وتفسير تأثيره فينا، أو بالأحرى ذلك التاريخ الفعال الذي يميل مؤرخو الهيرمينوطيقا إلى رؤيته على أنه عائق، هو بالنسبة "لجادامر" عنصر أساسي يربطنا بالنص؛ أي أن أحكامنا وفروضنا المسبقة هي التي تجعل الفهم ممكنًا[6].

ويمكن القول بأن التفسير عند "جادامر" مثله في ذلك مثل "اللعب" أو "الحركة"؛ فلا يمكن فهمه بوصفه نشاطًا للذات المفسرة، ولا منهجًا تفرض فيه الذات السيطرة على نفسها من أجل السيطرة على الموضوع؛ ففي هيرمينوطيقا "جادامر" كما هي الحال في الجدل اليوناني، يتكون التفسير الذي يؤدي إلى الحقيقة من "حركة" الشيء المراد فهمه؛ والأشياء تصبح مفهومة من خلال تفسيراتها؛ أي من خلال اللغة التي تحدثنا هنا والآن؛ بل إن وجود الأشياء يصبح مفهوماً من خلال اللغة، أو بتعبير "جادامر" الطبيعة اللغوية للتفسير تبين أن

(*) "Understanding is inseparable from language and that language is related to reason of every kind".
(1) Gadamer, H. G.: "Truth & Method", P. 474.
(2) Ibid., P. 477.
(3) Ibid, P. 489.
(4) Ibid, P. 461.
(**) "The absolute openness of the event of meaning in which it shares".
(5) Ibid, P. 472.
(6) Outwaite, W.: "Biographical… ", P. 262.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلمة المفسرة هي كلمة المفسر، وهذه الكلمة ليست هي لغة أو قاموس النص المفسّر[*][١]، ومعنى ذلك أن التفسير ليس تكرارًا للنص التقليدي؛ وإنما هو خلق جديد للفهم، فإذا كان كل معنى ينتمي إلى الأنا أو الذات، فإن ذلك يعني أنه بمقدار ما تكون الخبرة الهيرمينوطيقية موضع الاهتمام، يمكن إدراك المعنى في علاقته بالذات الفاهمة.

ومن ناحية أخرى، فإن الوحدة الصميمة بين الفهم والتفسير تشير إلى أن التفسير الذي يكشف عما يتضمنه النص من معنى ويُعبر عنه باللغة، إنما هو "إبداع جديد"، ومع ذلك فلا وجود له بمنأى عن عملية الفهم[٢].

يتضح من ذلك أن اللغة ذاتها – عند جادامر - ذات طبيعة تأملية بوصفها تحققًا للمعنى، وحدثًا للكلام، والاتصال، والفهم. وهذا التحقق ذو طبيعة تأملية بحيث إن الإمكانات المتناهية للكلمة تتجه نحو المعنى المقصود، كما تتجه إلى اللامتناهي؛ ذلك أن محاولة الفهم تعني الربط بين ما يقال، ولا نهائية ما لم يقال في وحدة المعنى الواحد، والتأكيد على فهمه بهذه الطريقة[٣]، فضلاً عن أنه من خلال الهيرمينوطيقا تصبح اللغة قادرة على أن تقول ما لم تقله من قبل[٤].

تعقيب:

يترتب على هيرمينوطيقا الفهم واللغة عند جادامر ما يلي من نتائج:

أولاً: إذا كان من المتعذر الوصول إلى الفهم إلا عن طريق التفسير، فمن المستحيل فصل الوسيلة عن الغاية؛ فضلاً عن أن تحقيق الفهم لا يحدد أين يتوقف التفسير؛ لأن هناك باستمرار ما يحتاج إلى الفهم: أي أن الفهم يحدث في غمار عملية مستمرة من التفسير، وليس بعدها. ومن ناحية أخرى فإن التفسير ليس سابقًا على الفهم بل تابعًا له، وهنا يُدرك الفهم بوصفه فعلاً عقليًا خاصًا يتم التعبير عنه في تفسير عام. فإذا كان التغير التاريخي حقيقيًا، فلن يكون هناك منهج للتاريخ دونما تفسير، أو نحن لا نفهم أولاً ثم نختار اللغة التي نفسر بها كي نعبر عما قمنا بفهمه، بالأحرى، فإن عدم قابلية الفهم والتفسير للانفصال تعني أن التفسير – هي بحثه عن

(*) The interpreting word is the word of the interpreter, it is not the language and the dictionary of the interpreted text.

(1) Weinscheimer, J. "Gadamer's Hermeneutics …. , P. 254-255.
(2) Gadamer, H.G.: "Truth & Methods", P. 473.
(3) Davery, R.N: "A Response to P.C. Smith"., P. 53.
(4) Weinscheimer, J.: Gadamer's Hermeneutics …."., P. 227.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلمات للفهم – إنما هو الفهم ذاته بحيث تصدق عبارة شلايرماخر: "كل ما يُفتـــرض مسبقًا في الهيرمينوطيقا هو لغة فحسب"(١). والتي سبق الإشارة إليها.

ثانياً: إن هيرمينوطيقا الفهم لحظة أساسية وضرورية للفهم ذاته؛ فالنص ليس موضـــوعًا في حد ذاته؛ بل هو نتاج الحوار الذي يوجهه التوقع بأن شيئًا ذا معنى قد قيل حول شيء ما، ويمثل هذا التوقع دافعًا لتناول النص على أنه نظام لمعنى محايث تام فـــي ذاته فيما يسميه "جادامر" استشراف الكمال؛ فالنص لا يكون موجودًا إلا في حـــوار بين النص والمفسر.

ثالثاً: إن فهم النص يستلزم فهمًا لمادة الموضوع التي يتحدث عنها النص؛ فـــضلاً عـــن ضرورة التأمل في الدوافع الإدراكية التي تكمن خلف النص، وذلـــك لفهـــم الـــنص وجعله موضوعًا للبحث، وبذلك يشتمل فهم النص على فهم ذاتي؛ إذ إن ما ينبغـــي فهمه ليس كلمات النص وعلاقاتها فقط؛ بل أسباب نداء النص الموجه للقارئ(٢).

رابعًا: هيرمينوطيقا الكتابة والترجمة عند جادامر:

أ- هيرمينوطيقا الكتابة:

يقول جادامر:

"... **اللغة بوصفها كذلك يمكن أن يقابلها كل فعل آخر من أفعال الاتصال، ويـــسمى ذلك ... بالكتابة(*)؛ فالحدث المقنع الذي يربط الإنسان بالآخر أو بذاته بطريقـــة حدســـية حية.. ويمكن أن يتخذ مع ذلك شكلاً حاسمًا من خلال العلاقات المكتوبة، وهذه العلاقـــات يمكن قراءتها، ونزع الشفرة عنها، ورفعها إلـــى مـــستوى الحـــدث enactment ذي المعنى**"(٣).

ويمكن القول – في ضوء النص السابق – إن موضوع التفسير عند "جـــادامر" هـــو التراث في صورة لغة، وخصوصًا اللغة الصامتة المكتوبة، ويمكن تفسير التـــراث غيـــر اللغوي ما دام يمكن فهمه بوصفه هو الآخر لغة، وهو سواء كان شـــفهيًا أم كتابيًـــا، فـــإن يتحقق له البقاء عن طريق التكرار.

---

(1) Ibid, P. 217.

(٢) ديفيد كوزنز هوي: "النظرية الهيرمينوطيقية والتاريخ"، ترجمة خالدة محمد، مجلة فصول – العدد ٥٩، ص ١٨٤-١٨٦.

(*) Graphic transcriptions, writing.

(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 547.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى أية خال فليس عن طريق التراث الشفهي وإنما المكتوب تتحقق اللغة؛ وإذا كان الكتاب عرضة للتلف؛ إلا أن ما هو مكتوب موجود نموذجي مجرد تمامًا عن تكوينه المادي.

وبذلك تكون الكلمة وليس الكتابة بمثابة "الحامل للتراث"، والتراث المكتوب بدوره يحقق وجودًا نموذجيًا خالصًا لا يعتمد على أي كتاب جزئي، هذا فضلاً عن أن الكلمة المكتوبة يتم تجريدها من الصوت الذي يعتمد عليه التراث الشفهي.

ويعني ذلك أنه من خلال النصوص يتوفر لدينا مدخل مباشر إلى الماضي بدون الوسائط العديدة الضرورية للانتقال الشفهي للتراث؛ ولذلك تظل النصوص قائمة بذاتها في غير حاجة إلى الوسائط.

وعلى الرغم من ذلك فالتراث المكتوب مثله في ذلك مثل التراث الشفهي يتلاشى تمامًا حينما نتوقف عن تفسيره، فإذا كانت الفروع المتحركة للشجرة – مثلاً تنبئ عن الريح، والصورة الشخصية تمثل الشخص موضوع الصورة؛ فإن الكلمة المكتوبة لا معنى لها على الإطلاق ما لم تفسر، ولن تكون كلمة اللهم إلا إذا تم تفسيرها على أنها كذلك، ولا وجود لها خارج التفسيرات الخاصة بها.

يرى "جادامر" أنه في الكتابة تحقق اللغة روحيتها الحقيقية، بمعنى أن "الحرف" كموجود مثالي مجرد من التجسد المادي هو الروح، وأنه من خلال القراءة يتكون لدينا مدخل مباشر إلى لحظة الماضي، ولا يعد ذلك مدخلاً جزئياً إلى شذرات من الماضي، وإنما مدخل إلى الكل، وعندما تصبح الكتابة وسيطًا إلى هذا المدخل، فإن الماضي يحقق الاستمرار المميز للروح بحيث يظل متاحًا لكل حاضر؛ ومع ذلك فإن التراث المكتوب يعتمد على القارئ، لأن الكتابة لا معنى لها بدون التفسير[1]؛ ذلك أن النص في حد ذاته يكون صامتًا، ويحتاج إلى مفسر يتحدث عنه بلغة الحاضر تمامًا مثل الدور الذي تقوم به "المرآة"؛ فالنص يمد المفسر بأوضح صورة ممكنة عن الماضي، ولكنها صورة خيالية غير موجودة ما لم يشخص في المرآة؛ أي ما لم يقم بتفسير النص.

ويؤكد "جادامر" على أهمية مشاركة الموروث في الحاضر؛ لأن قارئ الكلمة المكتوبة لا يحتاج في قراءته العودة إلى الماضي، وإنما يكون هنا وهناك في الآونة نفسها من خلال الكتابة. إن الماضي يفقد تجسده، ويصبح مجردًا ومغتربًا في وجود روحي

(1) Weinscheimer J.: "Gadamer's Hermeneutics…", P. 221-222.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خالص ما لم يكن معاصرًا للحاضر، فضلاً عن أن "روح الحرف" تكون فارغة من المعنى حتى تصبح عينية وواقعية ف كل تفسير يحدث لها.

ومن ناحية أخرى فالكتابة عند "جادامر" بخلاف الحديث لا تتطلب حضور الكاتب، وقد يستمر أثرها حتى بعد موته، وحتى إذا كان النص (مثل الحرف) موجهًا إلى متلق خاص، فإن معناه لا يقتصر على ما يفهمه ذلك المتلقي، فهو – كالكتابة – يكون مفهومًا لكل امرئ في أي زمان مهما كانت الظروف المحيطة حال قراءته، إن "النص" يخص كل زمان وكل شخص بوسعه القراءة.

ويضير "جادامر" أن الكتابة يمكن نسخها، وإعادتها مرة أخرى[١] وتكرارها عددًا لا نهائيًا من المرات لأن معناها مستقل عن حياة الكاتب؛ فالنص لا يُفهم بوصفه تعبيرًا عن الحياة، ومثالية الكتابة تنتزع المعنى من نفس الكاتب والقارئ على السواء.

كما يرى أنه يمكننا أن نسأل المتحدث عن توضيح، وفي تفسير "النص" لا يكون هذا التوضيح ممكنًا ما لم نقدمه بأنفسنا، أما "الحديث" فهو يفسر نفسه إما من طريق الإلقاء وإما طريقة النطق Accent، والإشارة إلى الظروف التي تم فيها بينما لا تتقيد بذلك الكتابة. ويبدو أن ما هو مكتوب بالنسبة للقارئ يكون موجهًا دائماً ومباشرة نحوه، وما يفهمه يكون دائمًا حقيقة ممكنة[٢].

ب- هيرمينوطيقا الترجمة:

يقول جادامر:

"... **تشتمل عملية الترجمة على سر أو لغز يفسر لنا كيف يفهم الناس العالم، وكيف يتصل كل منهم بالآخر؛ إن الترجمة وحدة لا تنفك من أفعال التوقع، وإدراك المعنى ككل وبصورة مسبقة، وتؤسس ما تم فهمه مسبقًا... إن الكلمة تصبح حقيقية عندما تقدم ذاتها في حديثنا، وتعرض تخطيطها المسبق، واستخدامها المألوف... وهي تقودنا إلى نتائج ربما لم نكن نتوقعها**"[٣].

يتضح من النص السابق أن "المترجم" عند "جادامر" يمكن أن نسميه أيضاً "مفسرًا"، أو أن الترجمة شكل أقصى من أشكال التفسير؛ ذلك لأن الهيرمينوطيقا يكون دائمًا وراءها

---

(1) Ibid, P. 222.
(2) Ibid, P. 223.
(3) Gadamer, H.G.: "Truth& Method", P. 548.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

درجة من درجات الاغتراب في الفهم؛ ومن ثم يحتاج كل فهم إلى وسيط للتفسير هو الترجمة[١].

ويعين الانتقال من "الحوار" إلى "الترجمة" بوصفها نموذجًا للعملية الهيرمينوطيقية التحول من اللغة الشفهية إلى المكتوبة بوصفها وسيطًا للفهم، وتبقى الترجمة شكلاً للحوار بوصفها عاملاً مشتركًا بين اللغة الأصلية واللغة المترجمة، أو هي الشيء المقصود بينهما، وهي التي توجد نوعًا من المشاركة بين المتحاورين؛ ومع ذلك فيمكن القول إنه في حالة الترجمة يتم الحوار بين المفسر والنص أكثر مما يتم بين شخصين متحاورين، أو بعبارة أخرى يعتبر النص "محاورًا صامتًا" يتحدث فقط من خلال المفسر في حالة الترجمة، فضلاً عن أن المفسر عليه أن ينفتح على ما يقوله النص، وإلا لن تكون بصدد حوار وإنما حوار فردي (مونولوج)[٢].

ويمكن القول إنه في حالتي الترجمة والتفسير عمومًا ينفتح المفسر على النص، وهذا الانفتاح نتيجة ضرورية لحاجته إلى التفسير. ولكن ألا يؤدي بنا ذلك إلى سؤال اللغة بصفة عامة: كيف يمكن أن نسمي الأشياء؟ إن المشكلة تنشأ عندما نجد أنفسنا مقيدين بالقدرة التعبيرية للغة في استخدامها المألوف؛ إلا أن اللغة تشتمل في ذاتها على مبدأ للنمو يتجاوز الاستخدام المألوف لها كي يواجه احتياجات الفكر والفهم[٣]، ونحن عندما يتحقق لنا فهم شيء ما، يمكننا أن "تسمى" ما نفهمه، ويبدو أن التكامل بين الفكر، والكلمة، والشيء هو الذي يكشف عن صعوبة الترجمة.

ويعني ما سبق أن العلاقة الوثيقة بين اللغة والأشياء تبين أن العقل بدوره يرتبط باللغة، وأن كثرة اللغات تشير إلى أن الأشياء لا تعتمد على لغة بعينها، وفي كل الأحوال فالترجمة دائمًا ممكنة، فكل لغة – على حد قول "جادامر" – على الرغم من اختلافها عن اللغات الأخرى بوسعها قول ما تريد، والهرمينوطيقا هي التي تمكن اللغة من قول ما تريد اللغات الأخرى قوله؛ إنها – بالأحرى – العملية التي تتوسع من خلال القدرة التعبيرية للغة كي تتحول في النهاية إلى حوار[٤].

(1) Weinscheimer, J.: "Gadamer's Hermeneutics…., P. 217.
(2) Ibid, P. 220-221.
(3) Ibid, P. 226.
(4) Ibid, P. 227.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدير بالذكر أن "جادامر" يؤكد في الجزء الأخير من كتابه "الحقيقة والمنهج" على ما يمكن تسميته بقصدية الفهم(*)، تلك التي تتضمن دائمًا فهم شيء ما بقصد الوصول إلى فهم مشترك عن موضوع مشترك من خلال عملية لغوية تتطلب بدورها لغة مشتركة.

وفي ذلك يختلف "جادامر" مع "شلايرماخر"؛ حيث يرى "شلايرماخر" – كما سبق ذكره – أن "كل شيء يفترض مسبقًا في الهيرمينوطيقا إنما هو اللغة فحسب"، والأمر بالنسبة "لشلايرماخر" أن الهيرمينوطيقا هي محاولة لفهم شخص آخر وليس شيئًا ما، ويتركز هذا الفهم حول تعبيرات ذلك الشخص، بحيث تكون الحالة التي سبق افتراضها في الهيرمينوطيقا هي هذه التعبيرات، والقول بأن هذه التعبيرات هي اللغة قول صحيح؛ علمًا بأن "شلايرماخر" يفهم اللغة بوصفها تعبيرًا استطيقيًا ذاتياً(**) عن ذاتية الشخص الذي يعبر عن نفسه(١).

تعقيب:

وفي ضوء ما سبق عن هيرمينوطيقا الكتابة والترجمة يمكن التوصل إلى ما يلي من نتائج:

أولاً: إن "حدث الفهم"(***)يخلق لغة مشتركة تكون قد حدثت بالفعل، وأن المشاركين في لغة – بمعنى ما – لم يعودوا في حاجة إلى الترجمة بقدر حاجتهم إلى الحديث، ونحن لا نفهم اللغة فهمًا تامًا عندما "تُموضع" اللغة بما هي كذلك؛ وإنما عندما يتم التعبير عن شيء آخر من خلالها.

ثانياً: إن فهم لغة ما يعني فهم ما يقال، وليس فهم اللغة في حد ذاتها على الإطلاق؛ وإن القدرة على الحديث لا تعني بالضرورة القدرة على فهم اللغة الخاصة بشخص ما؛ ومع ذلك فهي تعني بحق فهم ما يقال عن طريق هذه اللغة، حتى إنه يمكن القول بأن غياب الترجمة معناه غياب الفهم.

ثالثًا: ما يطرأ على الأشياء من تغير هو الذي يجعل من فهمها أمرًا ضرورياً، و"الفهم" الذي يحاول أن يقف على حالات ومظاهر الشيء المختلفة في الماضي والحاضر

(*) Intentionality of Understanding.
(**) Aesthetic self-expression.
(1) Ibid, P. 219-220.
(***)The event of Understanding.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنما هو "التفسير"، بحيث يصبح فهم الأشياء بعد تغيرها شكلاً من أشكال الترجمة بمعنى واسع.

رابعًا: إن فهم شيء ما معناه القدرة على ترجمته إلى لغات مختلفة أو القدرة على إعادة صياغته من خلال لغته الأصلية نفسها، ولكن ما الذي تعاد صياغته أو ترجمته؟ هل هي الكلمات أم الأشياء؟

يبدو أنه في حالة الترجمة يتم العثور على كلمة بديلة تقوم بدور التعريف مثلاً، مما يعني ترك الكلمات الأصلية أو عدم ترجمتها على الإطلاق، وإنما مجرد إحلال كلمة أخرى بدلاً منها.

خامساً: في ضوء مفهوم "جادامر" عن الاندماج بين اللغات لينتهي إلى لغة مشتركة، فإن السؤال يظل حول طبيعة الترجمة، فهل يتم من خلالها ذلك الاندماج بين اللغات، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون إحلالاً وإبدالاً للغة محل الأخرى؟

يمكن القول إجابة عن هذا السؤال بأن الترجمة توسع من أفق ما يمكن أن يقال في لغة ما، وهذا التوسع يعد وظيفة لاندماج اللغات، ونحن عندما نتوصل إلى ترجمة أصيلة، فإن ذلك لا يعني أن الكلمة في لغتها الأصلية تُترك؛ وإنما – بالأحرى – تندمج مع لغة المترجم(١).

سادساً: إن الترجمة تمثل عند جادامر أحد النماذج المهمة في التفسير؛ لأن الترجمة ترغمنا ليس فقط على إيجاد اللفظ المناسب، وإنما أيضاً على إعادة بناء وتشكيل المعنى الحقيقي للنص داخل أفق لغوي جديد.

ونحن عندما "نفهم" النص، يمكننا مباشرة ترجمته؛ لأن الشروع في الترجمة يرتبط بالفهم المسبق لموضوع النص(٢).

خامسًا: هيرمينوطيقا التناهي في اللغة والخبرة التاريخية:

أ- التناهي في اللغة والتاريخ:

يقول جادامر:

"... **نحن توجهنا الظاهرة الهيرمينوطيقية، وأساسها الذي يحدد أي شيء آخر هو تناهي خبرتنا التاريخية(*).. اللغة هي التناهي ليس لأن تركيب اللغة الإنسانية متعدد**

---

(1) Ibid, P. 218-219.

(٢) هانز جورج جادامر: "التأويل واللغة والعلوم الإنسانية"، ص: ٣٤٢.

(*) The finitude of our historical experience – die Endlichkeit unserer geshichtlichen Erfahrung. (Vgl. Gadamer, H.G.: "W & M.", S. 433).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوجوه؛ ولكن لأن كل لغة تتشكل وتتطور باستمرار كلما عبرت عن خبرتها مع العالم؛ اللغة متناهية ليس لأنها لا تمثل كل اللغات الأخرى، ولكن لمجرد أنها لغة... إن حدث اللغة يتفق مع تناهي الإنسان بمعنى آصل مما نجده في التفكير المسيحي عن الكلمة؛ إنه من خلال اللغة "كوسيط" تتكون كل معرفتنا عن العالم، وخصوصًا تنكشف الخبرة الهيرمينوطيقية. الكلمة ليست مجرد كمال للنوع كما زعم الفكر الوسيط، وعندما يتمثل الموجود في العقل المفكر، فلا يعد ذلك تأملاً أو تفكيرًا في نظام سابق معطى للموجود، أي في الطبيعة الحقيقية التي تظهر للعقل اللامتناهي (أي الخالق)، وليست الكلمة أداة مثل لغة الرياضيات التي يمكن أن تؤلف عالمًا موضوعيًا من الموجودات التي يمكن أن تكون في متناول أيدينا عن طريق الحساب... إن اللغة كوسيط وحدها تكون كذلك بالنسبة لمجموع الموجودات، وهي تكون وسيطًا للطبيعة المتناهية والتاريخية للإنسان مع ذاته، ومع العالم"[(١)].

فإذا كانت اللغة – عند "جادامر" – متناهية، فإن التاريخ يمثل بدوره لحظة التناهي في الخبرة الإنسانية عمومًا بوصفه وسيطًا للحياة الفاعلة عن طريق اللغة. إن منطق الوسيط في التاريخ هو عند "جادامر" ما نفكر فيه بوصفه منطق اللغة ذاتها.

إن مبدأ عمل التاريخ – كما يرى "جادامر" – هو الاندماج الداخلي للآفاق بحيث يتم الحوار بين الماضي والحاضر، وتلتقي حقيقة التراث التي تم اكتشافها، والحقيقة المنتجة التي يتم إسقاطها في الحاضر، ويكون الفهم في هذا السياق هو فن ترجمة حقائق التراث لتقييمها، وتطبيقها على اللحظة الراهنة[(٢)].

ب- السؤال عن التاريخ وعلاقته باللغة:

يفهم "جادامر" التاريخ بوصفه حوارًا، وفيه تحتدم المعركة من أجل الفهم بين المتحاورين. إن مهمة التراث هي جعل التراث الإنساني معينًا، وفي الوقت نفسه الالتزام بانفتاح التاريخ، وإنارة الطريق بحيث تتشكل الموروثات، علمًا بأن السؤال عن التاريخ لا يمكن طرحه – من وجهة نظر "جادامر" – ما لم يوضع بوصفه سؤالاً أخلاقيًا وسياسياً[(٣)]، أي أن تصور المستقبل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتاريخ من حيث كونه السؤال عن مستقبل الحوار الذي لم نسيطر عليه بعد، وعندما تناول "جادامر" العلاقة بين الثقافة والمستقبل كان

---

(1) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 457.

(٢) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا...." ص: ١٥٨.

(3) Outwaite, W.: "Biographical Dictionary … " P. 437-438.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعيًا بممكنات الماضي التي لم تتحرر بعد، وهي الممكنات التي تمثل قوة دفع للحوار الذي يتم على أساس هذه الممكنات[١].

وإذا كانت اللغة عند "جادامر" تمثل "الوسيط" و"المركز" للهيرمينوطيقا[*] فإن الخبرة الهيرمينوطيقة تمثل حياتنا في عالم اللغة بصفة عامة، وهي التي تعين التاريخ الفعال[**].

ويمكن القول بأن العملية التي يتحدث عن طريقها التراث من جديد من خلال لغة تفسيرية هي العلمية نفسها التي يتم عن طريقها التعبير عن الأشياء في صورة كلمات؛ إن الأشياء مثل التراث تصبح قادرة على الكلام وعلى الفهم، وينتمي إليها الوعي قبل تموضعها عندما كانت جزءًا من لغة العالم[٢].

يقول جادامر:

"... **ما من سؤال عن الروح الواعية بذاتها بدون العالم .. إن كلا منهما ينتمي إلى الآخر بصفة أساسية .. كما أن العلاقة الوثيقة بين التراث والتاريخ يتم التعبير عنها في الوعي التاريخي الفعال**[***]"[٣].

يعني ما سبق أن الوعي التاريخي الفعال هو وعي المفسر بتأثيرات اللغة على ذات المفسر، وعلى موضوع التفسير؛ ومع ذلك فكلما يبذله من جهد لبناء الوعي الهيرمينوطيقي باللغة يتجه نحو إيضاح كلمات المفسر، ومفاهيمه، وجعلها غير مرئية.

إن الفهم يصل إلى أعلى الدرجات عندما يترك النص ليتحدث من خلاله دون تدخل منه. أما التفسير الساذج فهو يفتقر إلى الوعي باللغة كما هي الحال في الأحكام المسبقة بأسرها[٤].

ج- الحقيقة تحدث استجابة للتراث:

أشار جادامر في نص مهم له إلى أن:

---

(1) Ibid, P. 441.
(*)"Sprache als Medium der hermeneutischen Erfahurng" (Gadamer, H.G. "W & M., S. 387).
(**) Wirkungsgeschichte – effective history.
(2) Weinscheimer, J: "Gadamer's Hermenutics….", P. 248-249.
(***) Wirkungsgeschichtliches Bewusstesein.
(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 458-459.
(4) Weinscheimer, J: "Gadamer's Hermeneutics" P. 225 – 226.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"... ما يؤسس الحدث الهيرمينوطيقي(*)تأسيسًا صحيحًا ليس اللغة بوصفها كذلك، سواء كانت قواعد نحو أم معجمًا لغويًا؛ إنه يتأسس من خلال ما ينتقل إلى اللغة في ضوء ما قيل في الماضي، وهو الحدث الذي يكون حدثًا وتفسيرًا في الوقت نفسه،.. وهذا الحدث يمثل فعل الشيء نفسه"(١).

ويعني ذلك أنه في "حدث التفسير يحدث التراث ذاته"(**)، أي أن التغيرات الجدلية التي تحدث في عملية التفسير ليست وظيفة لذاتية المفسر، وإنما التراث، وأن طريق التفسير هو المسار الجدلي للتراث ذاته كما هو مفهوم في سياقات جديدة، وملابسات جديدة عن طريق مفسرين مختلفين.

ويمكن القول بأنه عن طريق التفسير يتحدث التراث من جديد؛ أي أن شيئًا ما ينبثق ويوجد كما لم يوجد من قبل؛ فالتاريخ – إذن يُصنع في حدث فهم التراث، وعندما يتحقق الفهم، يتم إدراك شيء جديد، وما يحدث في الحوار الهيرمينوطيقي إنما هو الوجود.

نفهم من ذلك أن "الانتماء" طريقة أنطولوجية في الحديث عن حالة الاندماج عندما تتداخل الآفاق بحيث ينتمي التفسير لموضوع التفسير، وتكون النتيجة الكلية أكبر من أجزائها؛ حيث يولد وينمو شيء ما لا يمكن إرجاعه إلى "المفسر" ولا إلى "النص"، ولا إلى العلاقة الموجودة بينهما(٢).

إن التراث يتطلب التفسير، ويدعو إليه، ولا يبدأ فقط في غمرة الأحكام والمفاهيم المسبقة تاريخيًا؛ وإنما يبدأ في صورة استجابة لدعوة النص في كلتا الحالتين، مما يعني أن التفسير يقع ضمن عملية مستمرة لا بداية لها ولا نهاية. وفي هذا الصدد يقوم "تناهي التفسير" من عجزه عن البدء؛ فالبداية من لا شيء هي في الواقع البداية على وجه الإطلاق، وبفقدان النهاية يكون التفسير متناهيًا أيضًا، حيث أنه يتنبأ بلا نهاية.

ويبدو أن التراث يحتاج إلى عملية خطابية، وهذا الخطاب يحتاج إلى التفسير عندما يصبح مختلفًا ومغتربًا عن ميول وافتراضات المفسر المتعلقة بموقفه الذاتي: فالاختلاف – عند جادامر – هو شرط التفسير؛ لأنه ما لم يكن هناك اختلاف ما، فسوف تتكون فجوة ينبغي عبورها، وإلا لن يكون لدى المفسر، ما يقوله، ولن يكون التفسير ممكنًا(٣).

(*) The hermeneutical event.
(1) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 463.
(**) In the event of interpretation, tradition itself happens.
(2) Weinscheimer, J: "Gadamer's Hermeneutics". P. 250-251.
(3) Ibid, P. 254.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرى "جادامر" أنه من خلال "البصيرة المفسرة" تتشكل حقيقة مشتركة وواضحة تمتلك ما فيها من يقين، مثل هذه البصيرة بمثابة حدث أو خبرة للفهم، وذلك هو نوع المعرفة الذي ينتمي بطريقة شاملة إلى العقول المتناهية التاريخية التي تحتاج الخبرة؛ ذلك أنها لا تفهم الكل في حدس مفرد، ولا تطور المعرفة عن طريق التأمل الذاتي.

ويبدو أن "البصيرة" – عند جادامر – لا يمكن الحصول عليها إراديًا أو السيطرة عليها؛ لأنها ليست شيئًا من صنعنا، وليست نشاطًا تقوم به الذات العارفة، وإنما هي "حدث": في البصيرة، شئ ما يحدث لنا، وهذا الشيء سابق على المعرفة، ويتحدث إلينا(*).(1)، وعندما تصبح الأشياء فجأة جلية واضحة، وعندما نراها بحق للوهلة الأولى لأول مرة، فإن هذه الرؤية تكشف عن النور الذي يجعل البصرة ممكنة. إن حدث الفهم يعكس ويستجيب للحضور المستمر للذات في التراث، بحيث يمكن القول بأن:

"**الحقيقة** تحدث بوصفها استجابة للتراث الذي يتوجه إلينا في لغة يمكننا فهمها".

إن الوجود يتجلى في هذه اللغة، ولكي نفهم حدث الحقيقة التي تحدث في هذا التجلي للذات، فإن "جادامر" يستلهم التراث الأفلاطوني الذي يفترض أن حدث الإليثيا Aletheia أو الكشف Disconcealiment هو ماهية الجميل.

إن الجميل – عند جادامر – يتجلى في وجوده، ويحقق لذاته الحضور. وما يحضر ذاته لا يكون مختلفًا عن هذه الذات عندما يقوم بفعل الإحضار؛ فهو ليس حضورًا لذاته، وحضورًا للآخر، ولا يوجد اختلاف سواء كانت الذات هي التي تظهر أم انعكاسها هو الذي يظهر؛ على أن ما نفهمه من التراث هو مظهر من مظاهر الوجود؛ وفي هذا المظهر تكمن طبيعة الوجود (كما في الحال بالنسبة للجميل) كي يحضر ويظهر لأنه يفسر ذاته، إن الوجود يحضر في التمثلات التي يتم فهمه من خلالها، مثل العمل الفني الذي يوجد فقط في تاريخ تجلياته أو تمثلاته بحيث يمكن القول بأن: "الوجود يتحدث من خلال لغة تدركها العقول المتناهية"، ويُعد فهم هذه اللغة خبرة أصيلة تلتقي مع شيء يكشف عن ذاته بوصفه حقيقة.

ومن جانب آخر يرى "جادامر" أن "الحقيقة تحدث"، ولسنا نملك هذه الحقيقة، ولا هي من صنع الوعي، وإنما بالأحرى هي "شيء يحدث لنا"، ونشارك فيه مشاركتنا في

(*) "…. in an insight something occurs to us. Something that is prior to knowledge speaks to us.

(1) Ibid, P. 257.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعبة؛ إن الحقيقة تحدث عندما نفقد أنفسنا، ولا نعود نقف أمامها وقوف الذات أمام الموضوع، ونحن بمشاركتنا في اللعبة نكون قد شاركنا في الحدث المستمر للحقيقة[١].

تعقيب....

في ضوء ما سبق يمكننا أن نتوصل إلى النتائج التالية:

أولاً: إن الوعي الهيرمينوطيقي، والوعي التاريخي الفعال يتحققان بصورة نموذجية في وعي المفسر بحيث تكون الكلمات والمفاهيم التي يستخدمها مشروطة تاريخيًا، وأن تكون بمثابة الأحكام المسبقة لما يقدمه من تفسير، ولذلك يبحث المفسر في أصلها وتاريخها[٢].

ثانياً: إذا كانت "اللغة" في حد ذاتها هي الكلمة، وتمثل أهمية خاصة "لجادامر"، فإن "شلاير ماخر" هو الآخر يؤكد على أولوية اللغة في الهيرمينوطيقا؛ لأن اللغة ليست تلقائية، وإنما تشتمل دومًا على التفسير؛ ومع ذلك يرى "شلاير ماخر" أن الفهم ليس وسيطًا مطلقًا؛ وإنما الوسيط هو التفسير، وبذلك فإن الفهم والتفسير لا ينفصلان، وهو في ذلك يتفق مع "جادامر"، إلا أن "شلايرماخر" يعتبر التفسير موجهًا للفهم، بينما يرى "جادامر" أن الفهم يحركه الوعي التاريخي الفعال، وهو عنده يمثل الوعي بالتناهي التاريخي الذي يحاول أن يوسع من أفقه، بينما يعترف في الوقت نفسه بأن هذا الأفق لا يمكن أن يمتد إلى اللامتناهي؛ ولكن كليهما اتفق حول الفكرة الأساسية القائلة بأن "الفهم هو التفسير".

ويمكن الاعتراض على ذلك بأن التفسير يسبق الفهم بمقدار ما يكون وسيلة نتوصل من خلالها إلى غاية الفهم[٣].

ثالثًا: التناهي في النظرية الهيرمينوطيقية عند "جادامر" "تناه كلي"، والوقل بأن التناهي في حد ذاته هو الكلي المنكشف هيرمينوطيقيا هو بمثابة القول بأن ما من مطلق ممكن، وأن الحوار الذين نقوم به ليس نهائيًا، فضلاً عن أن هذا التناهي، إن أخذناه في الاعتبار، فإنه يجب علينا أيضًا أن نأخذ حقيقة التاريخ مأخذ الجد[٤].

---

(1) Ibid, P. 258.
(2) Ibid, P. 229.
(3) Ibid, P. 216.
(4) Outwaite, W: "Biographical Dic..,", P. 437.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سادسًا: الهيرمينويطقا والقول الشعري:
Die dichterische Aussage-Poetic Utterance:

أ- طبيعة القول الشعري عند "جادامر":

"... إن كل ما يؤسس الحديث اليومي يمكن إرجاعه إلى القول الشعري،... والصلة بينهما تظهر في أن في القول الشعري تركيزًا أو تكثيفًا لذلك الحديث... إن القول الشعري يختلف عن العبارة المكتوبة؛ فهو يقدم بطريقة غامضة كل الحوار كما لو كان حاضرًا، ... ونحن عندما نتحدث عن القول الشعري لا نقصد القول الصادر عن الأديب في عمل أدبي؛ فالقول يعبر عن العمل ذاته ككلمة شعرية. ولكن القول الشعري بما هو كذلك تأملي(*)... حيث يعبر عن علاقته الخاصة بالوجود... (مما يفسر لنا) رأي هيدرلين بأن العثور على لغة قصيدة ما معناه تلاشي كل الكلمات والأساليب المألوفة في التعبير... إن شيء يكون حاضرًا بالنسبة له كما لو كان هذا الحضور يتم لأول مرة.. إن القصيدة.. لا تصف أو تحدد موجودًا؛ وإنما تفتح أمامنا عالمًا من المقدس والإنساني.. إن القول الشعري تأملي بمقدار ما يعكس المظهر الجديد لعالم جديد من الإبداع الشعري"(١).

يتضح مما سبق أن "القول الشعري" حالة خاصة للمعنى قد تجسدت في هذا القول، فضلاً عن أن حضور اللغة الذي يحدث في القصيدة يشبه الدخول في علاقات تضمن "حقيقة" ما يقال. إن حضور اللغة – كل اللغة – وليس الحضور الشعري فقط تسم بخاصية تأكيد الذات Selfattestation فحيث تتكسر الكلمة، لا يوجد شيء كما يقول جئورجة.

وإذا كانت اللغة ذاتها عند "جادامر" "تأملية"، فهي كذلك لأنها تؤكد المعنى بوصفه حدث القول، من ثم تصبح وسيطًا للفهم؛ مثل هذا التأكيد "تأملي" بمعنى أن الإمكانيات المتناهية للكلمة تتوجه نحو المعنى المقصود، كما تتوجه نحو اللامتناهي(٢)، حيث لا يكون الحوار مجرد اندراج للأشياء المفردة تحت المفاهيم الكلية، فالكلمات في حد ذاتها تكون حاضرة فيما يقال، كما أن فكرة الجميل تكون حاضرة فيما هو جميل(٣).

(*) Die dichterische Aussage ist speckulativ".. (Vgl. Gadamer, H.G.: "Wahrheit und Methode", S. 474).
(1) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 470.
(2) Ibid, P. 469.
(3) Ibid, P. 490

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسبب وراء ذلك هو أنه في الأدب عمومًا، وفي الشعر على وجه الخصوص يتم حضور اللغة؛ أو بعبارة أخرى، الشعر هو دائمًا اللغة التي تدور حول اللغة(*)، أو هو اللغة في أقصى درجاتها من الانعكاس Reflexivity.

يترتب على ذلك أن القصيدة – بطريقة يتعذر تجنبها – تبين السمة الهيرمينوطيقية بقوة، مما يفسر لنا صعوبة فهمها؛ ففي القصيدة تتكشف اللغة، وتصل إلى أقصى مراحلها تكثيفًا. ومن ناحية أخرى فإن الخبرة باللغة بوصفها كذلك تشبه الخبرة بالتناهي التي نجدها في التاريخ(**).

و"جادامر" مثله في ذلك مثل "هايدجر" حيث وجد أن تجربة اللغة تتضح من خلال القصيدة بوصفها تجسيدًا لخبرة التناهي، وكلاهما أكد قدرة اللغة على الكشف والحجب(***) معًا، وكلاهما يرى أن اللغة المكثفة في القصيدة تزيد من خبرة التناهي في اللغة، فضلاً عن أنه اتفق مع "هايدجر" في أن "هيلدرلين" هو الشاعر المعبر عن هذه الخبرة في اللغة، ولعل ذلك هو ما حدا بهايدجر إلى القول بوجود علاقة خفية بين اللغة والموت، فجعل وجود الإنسان "وجودًا – من أجل الموت – "ينتمي للرباع Fourfold-das Geviert المكون من السماء والأرض والبشر الفانين والآلهة.

أما "جادامر" فقد وجد أن قوة التناهي أقل حدة وإن تكن أساسية؛ بمعنى أن حدود اللغة وليست حدود الحياة أو الموت هي محور تحوله إلى اللغة الشعرية(١).

يقول جادمر:

"أن يكون المرء مفهومًا يشير إلى الربط بين المقول(*) واللامتناهي في غير المقول(****)في معنى واحد"(٢).

(*) Poetry is always language that is about language.

(**) وقع اختيار جادامر على الشاعر Paul Celan لبيان الصلة بين اللغة والتاريخ، وأيضًا التناهي الخاص باللغة، وأفق إمكانية الاتصال الذي تفتحه.

(**)Conceal-Reveal.

(1) Schmidt, D.C.: A Companion, ……

(***)What is said?

(****) Infinity of what is not said.

(2) Gadamer, H. G.: "Truth & Method", P. 469.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويعني ذلك أن اللغة في القصيدة "تسمى" ما لا يمكن تسميته؛ فعندما تعجز الكلمات عن التعبير؛ فإن ذلك لا يعني أن القصيدة بلا معنى أو غير مفهومة، بل العكس هو الصحيح؛ إذ إن فهمنا لمعنى الكلمات يتجاوز إمكانيات اللغة في التعبير[١].

ب- السؤال عن الحقيقة والقول الشعري (مفهوم اللعبة):

"... ما نقصده بالحقيقة هنا يمكن تعريفه أفضل تعريف من خلال مفهومنا عن اللعبة "Spiel-Play"؛ فالأشياء التي تلقاها في عملية الفهم هي بمثابة لعبة كلمات تتم في حدث لغوي، وهي تلعب حول المعنى المقصود... إن لعبة اللغة[*]توجد حيثما تكون بوصفنا متلقين، وتساعدنا على فهم العالم"[٢].

كما يرى جادامر أن "أفعال اللاعب يجب ألا تعد أفعالاً ذاتية حيث إن اللعبة ذاتها هي التي تقوم باللعب[**]تؤدي دورها اللاعب؛ لأنها تجذب اللاعبين إلى ذاتها، ومن ثم تصبح الذات الحقيقية للعب[***]"[٣].

يتضح مما سبق أن "جادامر" يشير إلى لعبة اللغة ذاتها بمعنى توجهها إلينا لنقترح أو لتنسحب، أو أن تتساءل أو نحقق ذاتنا في الإجابة، مع التأكيد على أن حرية امتلاك المرء لذاته ضرورية؛ فالمرء الذي يفهم ينجذب دائمًا إلى الحدث الذي يتأكد المعنى من خلاله.

ويبدو أن استخدام "مفهوم اللعب" في الظاهرة الهيرمينوطيقية يماثل نظيره في الخبرة بالجميل؛ فنحن عندما نفهم نصًا ما وتأسرنا دلالة هذا النص كما يأسرنا الجميل؛ إنما يؤكد هذا المعنى، ويأسرنا قبل أن نتمكن من فهم أنفسنا، وقبل أن يكون في موقع اختبار المعنى الذي يحققه، علمًا بأنه عند "جادامر" لا يوجد فهم يخلو من الأحكام المسبقة[٤].

إن الفهم ذاته – وفقًا لما يراه "جادامر" – عملية لغوية، أو بعبارة أخرى الفهم عند "جادامر" تفسير يقوم على القدرة على العثور على مفاهيم توضح معنى نص ما أو حدث تاريخي، وإذا أردنا أن نفسر قصيدة ما تفسيرًا نموذجيًا؛ فإن هذا التفسير لن يكون نسخة مطابقة للقصيدة؛ ذلك أن النسخة المطابقة ليست تفسيرًا على الإطلاق، بعبارة أخرى يرى

---

(1) Weinscheimer, J.: Gadamer's Hermeneutics, P. 226.
(*)Das Spiel der Sprache.
(2) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 490.
(**) The game itself that plays.
(***)The actual subjectum of the playing.
(3) Ibid, P. 490.
(4) Ibid.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"جادامر" أن افتراض كلمات ومفاهيم الماضي، والتخلي عن مفاهيم وكلمات الحاضر هو ببساطة التخلي عن محاولة الفهم[١].

تعقيب:

يمكن القول بأن الهيرمينوطيقا الفلسفية عند "جادامر" بينما يصدق عليها تمامًا تفكيك "هايدجر" للميتافيزيقا، وتحليل الخبرة المتناهية، فإنها تظهر بصورة تذكرنا بأنها في حد ذاتها إشارة لشيء ما أكبر مما يقع داخل حدود الحاضر، وأن معنى هذا الشيء أعظم مما يمكن التعبير عنه بالقول في الحاضر، وهذا المعنى يتعلق بالفن والتاريخ خصوصًا، علمًا بأن إسهام "جادامر" في الفلسفة المعاصرة قد ارتبط بعمق بمسائل التراث يوجهه فهمه العميق للفكر اليوناني.

كما يمكن القول بأن الهيرمينوطيقا الفلسفية عند "جادامر" تنفتح على إمكانات التفكير في الحاضر لتجاوز التصورات الفلسفية المحدودة المعاصرة؛ إنها معركة للدخول في حوار مع الفلسفة، وفي الوقت نفسه تتحرك مجاوزة ذاتها إلى المستقبل[٢].

ومن ناحية أخرى فإن الهيرمينوطيقا عند جادامر تقوم على تطبيق أساسي هو الفهم والتفسير، ودليلها الأول في هذا هو "الفن"، ومن هنا ينبع تعريف شلايرماخر "الهيرمينوطيقا فن"؛ فهي تستعين بأدوات لغوية ومنهجية من خلال الترجمة والتفسير والفهم لفك شفرات النصوص، وتهدف هذه التقنية إلى العودة إلى المعنى الأول الذي انحرف عن مساره؛ فشهد تحولاً استمر لعدة قرون دعمته خلالها صراعات أيديولوجية، ودينية، وسياسية كبرى[٣].

سابعًا: الجدل في الخبرة الهيرمينوطيقية:

أ- "اللغة تتحدث" ومعنى الإنصات الحقيقي Zuhoren-listening**:**

يقول جادامر:

"... **الكلمة حدث يتم في اللحظة، وتحمل معها غير المقول الذي تنتمي إليه عن طريق استجابة الإنصات...**[٤]. **إن أولوية الإنصات على الرؤية إنما ترجع إلى شمولية اللوجوس التي لا تتناقض مع الأولوية الخاصة بالبصر أو الرؤية على سائر الحواس**

(1) Weinscheimer J.: Gadamer's Hermeneutics P. 224.
(2) Schmidt D.: A Companion, ……, P. 441.
(٣) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا....."، ص ١٥٤.
(4) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 452.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أكد على ذلك أرسطو؛ فلا يوجد شيء غير متاح للإنصات من خلال اللغة كوسيط؛ ... الإنصات طريق إلى الكل لأن بمقدوره الإنصات إلى اللوجوس(*)(١).... (وإذا كان) أسلوب وجود التراث ليس مباشرًا عن طريق اللغة، فإنه في تفسير نصوص هذا التراث يُرجع المنصت الذي يفهمها حقيقتها إلى توجه اللغة الخاص نحو العالم. هذا الاتصال اللغوي بين الحاضر والتراث هو الحدث الذي شغل مكانًا في كل أنواع الفهم ... (بحيث يمكن القول بأن) اللغة تحدثنا أكثر من كوننا نتحدث اللغة؛ أي أن الزمن الذي كُتب فيه نص ما يمكن تحديده بدقة أكبر من خلال استخدامه اللغوي أكثر من تحديده من خلال كاتب النص... إن كل امرئ بوسعه أن يتخذ موقفًا من التراث، ويصدق ذلك على الإنسان الذي تحرر ظاهريًا عن طريق الوعي التاريخي، والذي يُنصت إلى ما يصل إليه من هذا التراث .. إن حقيقة التراث أشبه بالحاضر المنفتح مباشرة على الحواس(٢)، (وعلى ذلك) فإن النص المكتوب في التراث – كما نعرفه – ليس شيئًا جديدًا؛ إنه فقط يغير من الشكل، ويجعل مهمة الإنصات الحقيقي أكثر صعوبة"(٣).

يتضح من النص السابق أنه ما من شيء تعجز اللغة عن التعبير عنه بكلمات منطوقة أو مسموعة؛ فالإنصات حاسة كلية، وهي مثل حاسة البصر لا تفصل الذات عن الموضوع. إن الإنصات للتراث إذا ما توجه إلينا، ووجه حديثه لنا من خلال لغة التفسير، فإنه يكون منتميًا(٤) لنا بحق، علمًا بأن الإنصات الحقيقي ليس إصرارًا على وجهة نظر واحدة، وإنما محاولة الفهم، ومراجعة الفهم، والإسقاط، وإعادة الإسقاط مما يفتح آفاق التفسير أمام المفسر. إن الجدل في الإنصات أكثر من مجرد تفسير العبارة والعبارة الموازية لها حول موضوع التفسير؛ فالواقع أكثر من مجرد أقوال وقضايا، مما يوضح لنا لماذا تحضر الكلمة المعنى الشامل النص؛ بعبارة أخرى أنها تسمح بلا تناهي المعنى أن يتمثل في المتناهي، علمًا بأن العلاقة بين المتناهي واللامتناهي التي تكون الكلمة المفسرة بمثابة الوسيط لها يسميها "جادامر" "علاقة تأملية" أو "علاقة المرآة"(٥) كما سنرى تفصيلاً.

يقول جادامر:

(*) "das Horen ist ein Weg zum Ganzen, weil es auf den Logos zu horen vermag" (Vgl. Gadamer, H.G.: "Wahrheit und methods, S. 460").
(1) Ibid, P. 462.
(2) Ibid.
(3) Ibid., P. 463.
(4) Weinscheimer, J.: Gadamer's Hermeneutics, P. 251.
(5) Ibid, P. 251-252.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"... هناك ما يشبه الجدل في الخبرة الهيرمينوطيقية die hermeneutische Erfahrung وهو بمثابة انفعال، أو فهم أو حدث يحدث للإنسان، الخبرة الهيرمينوطيقية تتميز أيضًا بالإنصات المستمر، وتبعًا لهيجل يمكن أن نسمى ما هو مشترك بين الجدل الميتافيزيقي والهيرمينوطيقي "بالعنصر التأملي"(*) وكلمة "تأملي" تشير هنا إلى علاقة المرآة، فالوجود المنعكس ينطوي على بدائل مستمرة يحل أحدها محل الآخر، ... وتتصل صورة المرأة بصورة أساسية بالمنظر الواقعي للشيء الموجود عن طريق وساطة الملاحظ... إنها تشبه المظهر الذي يختلف عن جوهرها، ومع ذلك فهي تسمح للشيء بالظهور عن طريق صورة المرأة، وهي بذلك مزدوجة، ومع ذلك فهي لم تزل شيئًا واحدًا،... وإذا استخدمنا كلمة "تأملي" كما استخدمها الفلاسفة حوالي القرن التاسع عشر، وقلنا على سبيل المثال إن إنسانًا ما يتمتع بعقل تأملي أو إن الفكر خاصية لشيء معطى، فإننا يجب أن نعتبره يقوم بوظيفة المرآة، حيث لا يكون الانعكاس سوى المظهر الخالص للمنعكس، كما أن الواحد هو انعكاس للآخر، والعكس أيضًا صحيح.. ما هو تأملي هو المقابل للمذهب القطعي في خبرة الحياة اليومية، والإنسان التأملي لا يتخلى عن ذاته مباشرة للتحديد الثابت لما هو مقصود.. وإنما من يستطيع أن "يفكر"، أو حسب الاصطلاح الهيجلي "من يرى ما هو في ذاته إنما يراه من أجلي (أو من أجل الآخر)"(١).(**)

أوضح "جادامر" أن العلاقة التأملية يجب أن تمر عبر التصور الجدلي، وهذا بالنسبة "لهيجل" مطلب الفلسفة، فالجدل تتم معرفته بحق عندما يغوص الفكر من القضية التي لا يمكن فهمها إلى النقيض الذي يوضحها، هذا ويميز "هيجل" بين ما هو تأملي وما هو جدلي، الجدلي هو التعبير عن التأملي(***)، وحضور ما هو موجود فعلاً في التأملي بحيث يصبح التأملي حقيقيًا على اعتبار أن الحضور انبثاق للشيء ذاته(٢)."، ويعني ذلك أن المضمون التأملي أو الفكري للعبارة الفلسفية يحتاج إلى الحضور الجدلي الملائم من المتقابلات لتكوين علم أصيل.

(*) The Speculative element.
(1) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 466.
(**) Who sees that the in-itself-is a for me.
(***) Die DIalektik ist der Ausdruck des Spekulativen (Vg. "Gadamer, H.G.: "Wahrheit und Methode", S. 472.
(2) Ibid, P. 468.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ناحية أخرى، فإن الجدل الفلسفي – وفقًا لما يراه "جادامر" في تفسيره "لهيجل" – يقدم الحقيقة بأسرها عن طريق تجاوز القضايا الجزئية، والتغلب على المتناقضات[١].

تعقيب....

في ضوء ما سبق يمكننا التوصل إلى النتائج التالية:

أولاً: يقصد جادامر بالمرآة أكثر من أن اللغة كالمرآة تمثل الأشياء في المرآة بطريقة استعارية، مما يعبر بدوره عن عدم وضوح اللغة المفسرة، وعدم قابليتها لأن ترى في حد ذاتها، وتلاشيها فيما تفسره، أو أن ما تعكسه المرآة هو أيضًا "صورة" Bild-image أو مظهرًا للشيء، فضلاً عن أن كلاً من المرآة وما تعكسه صورة للآخر.

ثانيًا: إن الشخص المتأمل بخلاف الدوجماطيقي؛ فالأول لا ينحصر فيما هو واضح، أو في الإجابة المتاحة مباشرة، أو في الحكم القطعي الثابت المحدد سلفًا؛ وإنما يفكر، ويتأمل، وينصت، وينفتح على البدائل والممكنات، التأمل أو التفكير هو أساس الفلسفة التأملية، وينطبق ذلك بوضوح على الجدل التأملي الهيجلي: "فهيجل" يكشف لنا عن البنية الجدلية للشيء ذاته، وعنده يتلاشى العنصر التأملي في العنصر الجدلي[٢].

ثالثًا: إن الطبيعة التأملية للحوار بخلاف القضية – تعكس دائمًا أكثر مما تفصح عنه أو تقوله؛ فالمقول das Gesagte-the said يعكس غير المقول das Ungesagte-the unsaid؛ كما أن الجزء يعكس كالمرآة الكل، والحقيقة الكلية تكون حاضرة في كل فعل من أفعال الحديث، فالكلمة – كحدث لحظي – تحقق لغير المقول الحضور؛ وهي في الواقع التعبير المنطقي عن الخيال الحي للحديث، هذا التعبير يستحضر على مسرح الأحداث معنى كليًا دونما القدرة على التعبير عنه بصورة شاملة؛ ذلك أن كل الحديث الإنساني متناه، ويتضمن معان لا متناهية يمكن توضيحها وتفسيرها.

رابعًا: إن الحوار ذو طابع تأملي، حيث يعكس الحدث المتناهي العرضي للكلام – خياليًا – غير المقال في لا تناهية، وهذا الطابع التأملي بمثابة توقع للحوار، والاتجاه به نحو المستقبل مما يشكل دافعًا للتفسير[٣].

خامسًا: يكون الحوار تأمليًا عندما لا يصور الموجودات بقدر ما يعبر عن علاقته بالوجود ككل مما يجعل الحديث عنه ممكنًا؛ أي أن كل ما يمكن فهمه لا ينحصر في صياغة

---

(1) Ibid, P. 471.
(2) Weinscheimer, J: Gadamer's Hermeneutics, P. 252.
(3) Ibid, P. 253.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عبارات عن أحوال أو موضوعات خاصة بالواقع؛ فالحديث ذو الطابع التأملي ليس تفكيرًا في حقيقة الموجودات، وإنما في الوجود، وبذلك يكون للنص معنى عندما يميل إلى غير المقول، ويدفعنا إلى التفسير، وإذا كان لا تناهي غير المقال هو الوجود الشامل – كما يفترض "جادامر" – فالوجود إذن هو ما يدعو إلى التفسير، والأنطولوجيا الهيرمينوطيقية إنما هي تفسير للوجود[١].

سادسًا: إن الوجود يفسر ذاته من خلال لغة مفهومة تعكس كالمرآة صورة شيء موجود يمكن فهمه؛ أي أن الموجودات الفاهمة هي التفسيرات التاريخية للوجود ولمظاهره، وتجلياته الذاتية، فضلاً عن أن الوجود يصبح مدركًا عندما يتمثل في الموجودات التي يمكن فهمها، وهذه الموجودات إنما تعبر عن تجلياتها الذاتية، واللغة الخاصة بها، "فالوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة" – كما سبق بيانه – مما يعني أن الوجود يوضح البنية – التأملية للغة، وهو مع ذلك يتميز عنها. ويبقى على وحدته، لأن ما نعبر عنه في اللغة لا يكتسب وجودًا ثانيًا، وإنما يتم التعبير عنه في اللغة – كما هي الحال في المرآة – فهو ظهور الشيء ذاته؛ إن الطريقة التي يظهر بها شيء ما تنتمي بحق إلى وجوده الخاص، وهذا يعني أكثر من التطابق مع الذات. بل هي تتميز عن ذاتها، وتلك هي حالة كل ما يوجد تاريخيًا، حيث يدخل في علاقة مرآة مع نفسه؛ فالوجود التاريخي تتحقق طريقته في الوجود بوصفه شيئًا مختلفًا دائمًا، وتعدد التفسيرات التاريخية لا يؤدي إلى كثرة خالصة لأنها جميعًا تأملات حول الشيء ذاته. إن كل ما يعبر عن اللغة له طابع تأملي، ويحمل اختلافًا في ذاته بين وجوده وتمثله، وهذا الاختلاف – في الحقيقة – ليس اختلافًا.

سابعًا: إن البنية التأملية للوجود وعلاقة المرآة مع تجلياتها أو مظاهرها نجد مثيلاً لها في الكشف الذاتي التأملي للنور؛ فكما أن "النور" يصبح مرئيًا في ذاته فقط عندما يجعل شيئًا آخر مرئيًا، فكذلك الوجود يتجلى في العملية التاريخية الخاصة بالكشف عن الموجودات التي يمكن فهمها، أي في اللغة، وهذه العملية هي بمثابة الحدث المستمر للحقيقة Aletheia. إن النور الذي يترك كل شيء يظهر بهذه الصورة حيث يمكن فهمه في حد ذاته هو نور الكلمة[٢]. و"جادامر" في ذلك – بلا شك – متأثر بـ "هايدجر".

---

(1) Ibid, P. 253-254.
(2) Ibid, P. 255, 257.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثامنًا: إن خصوبة العلوم الإنسانية – وفقًا لما يراه جادامر – نتيجة لحدث العقل وحيويته، وإن منهج العلوم الإنسانية لا يمكن إلا أن يتمثل في الروح الرومانتيكية والمثالية كما ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر خلال عصر التنوير، وهذا المنهج هو في المقام الأول "إنصات شعري للفهم الذاتي" في إطار استخدام قواعد استخدام العقل الصارمة بصورة عقلية، وهو ما عبر عنه "كانط" بقوله: "ليكن لديك الشجاعة على الاستعانة بفهمك الخاص".

يرى "جادامر" أن اكتشاف الحقيقة في العلوم الإنسانية يأتي من خلال "إنصات يقظ للتراث" الذي لا يمثل بأي حال عائقًا معرفيًا في سبيل الفهم الذاتي للعلوم الإنسانية بقدر ما هو لحظة حاسمة كاشفة لحقيقة لا تنفصل عن الموضوع، بحيث تظل العلوم الإنسانية "مرآة" تعكس للمفسر إمكانياتها المحتملة، وترده إلى ذاته مرتكزة إلى التراث الذي تعده أساسًا لفهم الذات(١).

ب- اللغة والانفتاح:

يقول جادامر:

"... **يتسم فعل الفهم والحديث بسمة العالمية(*)؛ حيث يمكننا التعبير عن كل شيء من خلال الكلمات، ويمكننا أن نحاول الاتفاق حول كل شيء، (على الرغم من أننا) محاصرون بتناهي قدراتنا، والحوار اللامتناهي(٢)... إن العالم يتجلى في صورة نص لا متناه(**) واللغة هي القوة المبدعة التي تحقق لهذا الكل الحضور.. وفي الواقع اللغة هي الكلمة المفردة التي تفتح أمامنا أفاقًا لا متناهية للحديث مع الآخر للحوار(٣)، وحرية التعبير عن الذات، وترك الآخر كي يعبر عن ذاته... اللغة هي الحوار اللامتناهي مع أنفسنا**"(٤).

يتضح من النص السابق أن "جادامر" يشير إلى أننا نحتاج الانفتاح على اللغة وقدرتها الداخلية على التطور؛ اللغة تكون ذاتها عندما لا ننظر إليها بوصفها موضوعًا، وعندما لا نميز بين الشكل والمضمون، أو بين الحديث والعالم؛ فاللغة ليست مغلقة بلا

---

(١) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينويطقا...."، ص: ١٥٧.

(*) Universality – Universalitat.

(2) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 544.

(**) An Infinite text.

(3) Ibid, P. 548-549.

(4) Ibid, P. 543.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نوافذ، وإن كانت كل لغة تقدم رؤية خاصة للعالم، ولكن هذه الكثرة تعني أن اللغات الأخرى والعوالم الأخرى تقدم إمكانيات كثيرة للغتنا الخاصة بمقدار ما يمكننا أن نستخدمها في الحوار.

وإذا كان "جادامر" يؤكد على رفض انقسام الذات – الموضوع، فإنه بذلك يتوصل إلى أهم النتائج وهي أن الاندماج بين اللغات هو اندماج بين العوالم؛ فالتزامن بين اللغة والعالم الإنساني تزامن جوهري[1]؛ واللغة تؤسس ما هو إنساني، أما العالم فيكون عالمًا فقط بمقدار ما تعبر عنه اللغة؛ ولكن اللغة أيضًا لها وجودها الخاص الحقيقي، والعالم يظهر من خلال ذلك الوجود؛ "إن العالم الإنساني يتأسس لغويًا"؛ ومع ذلك فالعلاقة بين اللغة والعالم ليست ثابتة؛ ذلك أن اللغات تتعدد أساليبها في القول؛ ولا توجد مطلقًا طريقة واحدة صحيحة لوصف ظروف بعينها، مما يعني أن هناك مسافة أو اختلافًا بين اللغة والعالم مما يمكن اللغة من نداء الأشياء أو الموجودات، اللغة أيضًا تهب العالم حريته الخاصة، وتقدمه كما هو في حقيقته؛ اللغة بإيجاز يمكنها أن تمثل أشياء الواقع؛ وذلك لا يعني أن العالم يوجد بمنأى عن اللغة، فنحن في حاجة دائمًا إلى الكلمات.

ومن ناحية أخرى، يرى "جادامر" أن كل لغة تحيا في عالمها الخاص، وأن العوالم الخاصة باللغات تتغير جذريًا في مجرى التاريخ؛ ذلك أن حدود اللغة تتسم بالمرونة، وعوالمها تحقق مفهوم الانفتاح[2]. ومع ذلك فكثير من اللغات تعبر عن العالم المألوف لدينا مستقلاً عن اللغة الجزئية الخاصة به، وبعبارة أخرى فإن كل عالم يشتمل على وحدة العالم الواحد مُدركة من خلال وجهة نظر معينة، وعالم اللغة يتسم بهذه السمة العالمية بصورة إيجابية بوصفها تعبيرًا عن إمكانياتها الخاصة.

يرى "جادامر" أن كثرة عوالم اللغة لا يمكن إدراكها على أنها أمور نسبية تقابل العالم المطلق الواحد؛ لأنه لا يمكن أن يعارض الواحد منها الآخر، ولما كان كل عالم من هذه العوالم يتأسس لغويًا، وهو من ثم منفتح على الآخرين، فإن كل عالم يشتمل في ذاته وبالقوة على كل العوامل الأخرى، أي أن كل عالم بوسعه أن يمتد إلى كل عالم آخر، يدرك "النظرة" إلى العالم كما تتجلى في اللغات الأخرى، وبعبارة أدق فإن كل لغة إنسانية لا متناهية بالقوة مما يساعدنا على فهم المبدأ الأساسي عند "جادامر": "**الوجود الذي يمكن فهمه هو اللغة**".

(1) Weinscheimer, J.: "Gadamer's Hermeneutics……", P., 243-244.
(2) Ibid, P. 245-246.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن السمة اللغوية لخبرتنا بالعالم تكشف عن خبرة هي دومًا متناهية؛ ومع ذلك فهي تلتقي بمعان لا متناهية؛ ومع ذلك فهي تلتقي بمعان لا متناهية لم يعد في وسعنا التحدث عنها، علمًا بأن اللامتناهي الممكن للغة لا يعني لا تناهي الوعي؛ فاللغة هي ملتقى التاريخ والتراث، والأحكام المسبقة التي تعمل عملها على الفكر سابقة على التأمل الواعي؛ أي أن اللغة هي العلاقة المميزة لتناهينا؛ ومع ذلك فاللغة تتجاوز بصورة لا متناهية كل استخدام محدد لها[١].

إن العالم الإنساني علم عن العالم الكلي الذي لا يمكن موضعته[*] لأننا نحيا فيه، وننتمي إليه، ونمثل جزءًا منه، واللغة هي القادرة على الكشف عن هذا الكل، لأن علاقتها بالعالم ليست موضوعية؛ إذ إن خبرتنا اللغوية عن العالم سابقة على كل ما يمكن معرفته والتوجه إليه بوصفه موجودًا من الموجودات. والعلاقة الأساسية بين اللغة والعالم – من ثم – لا تعني أن العالم قد أصبح موضوع اللغة؛ وإنما بالأحرى موضوع المعرفة والقضايا هو الذي يكون دومًا داخل أفق عالم اللغة.

يرى "جادامر" تأكيدًا لذلك أن السمة اللغوية لخبرتنا بالعالم لا تضمن تموضع العالم؛ فاللغة تتجاوز الوعي، ليس فقط لأنها تموضع كل موجود في العالم، وكل موضوع ممكن للوعي، ولكن أيضًا لأنها تكشف عن العالم المطلق اللانسبي، وليس هذا العالم موضوعًا للوعي[٢].

والقصيدة – مثلاً – عند "جادامر" ذات طابع تأملي لا لأنها تعكس كالمرآة موجودًا ما؛ ذلك أن كل كلمة تنبثق من المركز، وتنتمي إلى الكل الذي تكون من خلاله وحدة الكلمة أو اللغة الكلية التي تعكس الرؤية العالمية للعالم[٣].

يرى "جادامر" أن العبارة ذات الطابع التأملي ليست حكمًا مقيدًا بمحتوى ما يقال، وإنما كلمة مفردة بلا سياق منتزعة من سياقها؛ ومع ذلك فهي مرتبطة بالمتصل الذي يحدد معنى الكلمة الذي لا يمكن رده، فضلاً عن أن العبارة ذات الطابع التأملي تشير إلى حقيقة كلية شاملة دون أن تكون هي الحقيقة الشاملة.

وإذا كان التفسير لا متناهيًا عند "جادامر"، بمعنى افتقاره إلى البداية أو النهاية، فإنه يشتمل في الوقت نفسه على اللاتناهي التاريخي، مما يترتب عليه نتائج عميقة لمفهومنا

(1) Ibid, P. 246-247.
(*) Objectification.
(2) Ibid, P. 248.
(3) Ibid, P. 252-253

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الحقيقة التي تحدث أثناء عملية التفسير ذاتها[١]؛ حيث نتخلى عن مفهوم الغائية Teleology بوصفه مستقر الحقيقة، ونرى أن التراث والموجود ذاته يوجدان تاريخيًا، وأن التفسير التاريخي لهذا التراث يقدم لنا الحقيقة.

وفي هذا الصدد يرى "جادامر" أن الوجود يتجلى في "نور الكلمات التي تعكسه كما هو في الحقيقة، كما أن الجمال يتكشف في الجميل. الجمال – إذن – رمز الحقيقة، أو هو الحقيقة الأساسية في العلوم التفسيرية، تتحدد عن طريق وضوحها الذاتي، ولا تحتاج أن تبرهن على نفسها مثل الجمال، لأن حقيقتها واضحة بالفعل وسابقة على البرهنة، وكل ما نحتاجه هو "نور البصيرة" أو خبرة الإنارة المباغتة، حيث تتألق الموجودات في نور جديد، ليمتد أفق المعقولية وينتشر. إن الخبرة الهيرمينوطيقية تعبر عن ذلك لأنه في حدث الخبرة الأصلية عندما يتحدث التراث إلينا، هناك شيء ما تتحقق له الإنارة دونما برهنة، أو إصدار حكم أو قرار بشأنه[٢].

ومن ناحية أخرى أشار "جادامر" إلى أننا نتحرك في عالم لغوي، وإننا نحيا في العالم في ضوء خبرة تشكلت مسبقًا عن طريق اللغة، ومع ذلك فهذا التشكل لا ينتزع منا إمكانيات النقد؛ بل إن إمكانية تجاوز خبراتنا التي تم تخطيطها مسبقًا تنفتح أمامنا بمجرد عثورنا على أنفسنا، وفي حديثنا مع الآخرين، وفي مجابهتنا المفكرين المعارضين لنا مُزودين بآراء نقدية جديدة، وخبرات جديدة[٣]؛ ذلك أن قوة اللغة تتمثل في الاستخدام اللامتناهي الوسائل المتناهية، وإذا كانت الأصوات، والحروف، والكلمات، والنماذج التركيبية للغة متناهية؛ فهي قابلة لتغيرات لا حد لها، والأهم هو أن قوة اللغة تتجاوز ما يوجد وما يقال من خلاله، كما أنها تتجاوز المضمون الذي تشير إليه في كل لحظة باعتبارها صورة تتكون من عدد لا متناه من التكريبات تتكون بدورها من عناصر متناهية[٤].

تعقيب:

في ضوء ما سبق يمكننا التوصل إلى ما يلي من نتائج حول طبيعة العلاقة بين اللغة والانفتاح:

---

(1) Ibid, P. 254.
(2) Ibid, P. 257.
(3) Gadamer, H.G.: "Truth & Method", P. 546.
(4) Weinschiemer, J: "Gadamer's Hermeneutics…. ", P. 243.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاً: إذا كان كل وعي وعيًا بشيء ما، فإنه من الواضح أن اللغة لا تعرف بالوعي؛ لأن اللغة تتجاوز الوعي بصفة أساسية، ولأن أفق اللغة يشكل كل شيء يمكن أن يكون موضوعًا، ففي اللغة ما هو حقيقي أو واقعي يصبح مرئيًا وراء كل وعي فردي، وهذه الواقعية تدرك العالم الواقعي بأسره؛ ليس فقط الحقائق الواقعية، والأشياء التي يمكن التحقق منها عن طريق العالم، ولكن أيضًا المظاهر الواقعية مثل ألوان الجمال المختلفة في الطبيعة؛ علمًا بأن اللغة لا تفهم فقط كل ما هو موضوع، وإنما تقدم أيضًا ما لا يمكن أن يكون موضوعًا؛ فهي ليست العقل المطلق، وإنما في اللغة يقدم العالم نفسه، وتكون الخبرة اللغوية بالعالم "مطلقة"، بمعنى أنها تعلو على كل ما هو نسبي في الوجود، لأنها تدرك الوجود في ذاتها أيا كانت العلاقة التي تربطه بغيره[١].

ثانياً: إنه من خلال التفسير يتحدث النص؛ ولكن ما من نص يتحدث ما لم تتحدث اللغة التي تصل إلى الآخرين؛ فالنص القديم – مثلاً – لم يعد يتحدث لغة مفهومة، ولذا يعيد التفسير إنتاجه أو يكرره بصورة مفهومة، ومع ذلك فحديث النص بلغة ما يعني إمكانية فهم ذلك النص فهمًا تفسيريًا في إطار المفاهيم الخاصة بالحاضر؛ أي أن لغة الحاضر هي اللغة الوحيدة الجديرة بالفهم، فضلاً عن أن التفكير الماضي يشتمل دائمًا على الوساطة بين مفاهيم الماضي وفكر المفسر الحاضر، وعندما تندمج اللغات في هذه الوساطة، لا تبقى على ما كانت عليه؛ فشيء ما يحدث، وهذا الحدث هو ذاته حدث تاريخي ويمثل الفهم التاريخي للنص.

وإذا أدركنا "الوساطة" بوصفها تأسيسًا للعلاقة بين الماضي والحاضر، لرأينا بوضوح كيف ولماذا يتغير الفهم؛ فالتفسير يقدم نصًا ثابتًا يتحدث إلى الحاضر في ضوء الزمان المتغير[٢]؛ ومعنى ذلك أن كل لغة يمكنها التعبير عن كل شيء، وهي مجرد وسيط يربطنا بالأشياء، وهو بلا شك ربط محدود؛ لكن يمكن أن تتغير نظرتنا وأن تتمثل وجهة نظر أخرى داخل لغة أخرى[٣].

ثالثاً: اللغة – كما يرى "جادامر" – لا تشبه الأداة؛ فوجودها أكثر من مجرد استخدامها، كما أن القدرة على الحديث تتضمن القدرة على قول ما نقصده، ولسنا بحاجة في ذلك إلى التفكير في الكلمات في حد ذاتها Perse؛ ونحن عندما نتحدث، تختبيء كلماتنا في التفكير عن الشيء المقصود، كما أن اللغة تكون ذاتها أكثر ما تكون

---

(1) Ibid, 247.
(2) Ibid, P. 224.
(٣) ديفيد كورنز هوي: "النظرية الهيرمينوطيقية والتاريخ"، ص ٣٤٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما تكشف لا عن ذاتها، أكثر ما تكون عندما تكشف لا عن ذاتها وإنما عن الموضوع المقصود؛ علمًا بأن اللغة ليست موضوعًا خالصًا؛ وإنما تفهم كل ما لا يمكن أن يكون موضوعًا، وإذا كان كل وعي – كما أوضح هسرل – وعي بشيء ما، فإن ما يفترضه "جادامر" هو أن اللغة تتجاوز الوعي وسيطرته، لأن اللغة هي شرط الوعي بكل الموضوعات(*) أيا كانت(١).

رابعًا: إن كل الكلمات – في رأي "جادامر" – شفرات أو رموز عن أشياء مثل كلمة "هنا" التي يكتمل معناها في ضوء استخدامها في المواقف المحددة، ويمكن فهمها فقط عندما تفهم هذه المواقف فحسب، وبذلك يكون لمعنى كل كلمة ولصياغتها تاريخ محدد بحيث يمكن القول بإن في كل معنى جزءًا من التاريخ، وإن المعاني لا تكتمل إلا من خلال الموقف أو السياق الذي توجد فيه(٢).

ويعني ذلك أن "القول" يجعل الكلمة حية، متعينة ومن ثم حقيقية، وبالتالي فإن "فعل الحديث" هو حدث يتسم بالوجود والمعنى معًا(٣).

خامساً: إنه إذا توفرت لدينا خبرة جديدة وغير مألوفة، ونريد أن نعبر عنها بطريقة كلها جدة، فنحن نصل بذلك تلقائيًا إلى الاستعارة Metaphor أو الطريقة المجازية في التعبير والاستعارة مثل "الاستنباط" تبدأ من مفهوم ما، علمًا بأن المفهوم يتغير وفقًا لتطبيقه؛ والاستعارة أيضًا مثل "الاستقراء" تنتهي إلى مفهوم جديد، ولكن من خلال تشكيل المفهوم الأساسي، وهي في كل الأحوال تحتوي في استخدامها الاختلاف بين الجزئي والعام، والمألوف وغير المألوف(٤).

ويبدو أن الاستعارة – عند "جادامر" – ظاهرة كلامية بطريقة شمولية(*)؛ فما من كلمة تكون مجازية في حد ذاتها، وإنما من خلال ارتباطها بالكلمات الأخرى، وإذا وضعنا في الاعتبار العلاقة التفسيرية المتبادلة بين النص والسياق، فإن أيا منهما يتعذر فهمه من

(*) جدير الذكر أن القول بثنائية الشكل – المضمون في اللغة (وهو ما يرفضه جادامر) يؤدي إلى تصور أدواتي عن اللغة كوسيلة صورية للفهم، وإلى أن يصبح العالم شيئًا مغايرًا للغة، بحيث يصبح كل منهما نسبيًا في علاقته بالآخر، كما يؤدي إلى القول بأن كل عالم ليس نسبيًا فقط بالنسبة للغته، وإنما تحدده هذه اللغة.

CP: Weinscheimer, J.: "Gadamer's Hermeneutics….", P. 243.

(1) Ibid, P. 228.
(2) Ibid, P. 229.
(3) Ibid, P. 234.
(4) Ibid, P. 238.
(*) An Exclusive Discursive Phenomenon.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دون الآخر، مما يذكرنا بالدور الهيرمينوطيقي الذي يتخذ من الاستعارة نموذجًا في التعبير عنه؛ بحيث يصعب فصل اللغة إلى لغة حرفية وأخرى استعارية؛ لأن اللغة الحرفية تتكون من استعارة منسية، أو من الاندماج بين مجالين متطابقين من الحديث تم نسيانه[١].

يترتب على ذلك أن مفهوم الاستعارة مفهوم مركزي عند "جادامر"، فضلاً عن كونه أسلوبًا للفكر، أي أن الاستعارة عند "جادامر" هي استعارة الهيرمينوطيقا، واللغة استعارية بصفة أساسية، وتأكيد جادامر على أولوية اللغة والاستعارة يفترض أنهما يكونان حقيقة الهيرمينوطيقا[٢].

(1) Ibid, P. 239.
(2) Ibid, P. 240.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة:

نحاول في هذه الخامة أن نبين أوجه النقد الممكنة لهيرمينوطيقا اللغة عند "جادامر"، ثم نكشف عن حقيقة موقفه في تفسير اللغة.

أما عن أوجه النقد الممكنة لهيرمينويطقا اللغة عند "جادامر" فيمكن إيجازها في النقاط التالية:

أولاً: أخفق جادامر في إدراك أنه إذا لم يكن أفق النص محددًا من الناحية الموضوعية تمامًا، فمن المستحيل الوصول إلى التفسير الصحيح أو الملائم؛ أي أن الأفق التوضيحي للفهم يجب صياغته حتى يمكن اختبار قدرته على التعبير عن أفق النص والأفق المعاصر للمفسر.

ثانياً: النص لا يمكنه أن يتحدث بنفسه كما يرى "جادامر، ومن ثم فمن الضروري في تفسير نص من أن نصنف موضوعه أو الأفق الذي يدور حوله هذا النص، إذن تموضع النص أمر حاسم في تفسيره(١)، ومن ثم فلا مجال لافتراض "جادامر" بأن تموضع اللغة يشوه الأفق أو خلفية المعنى الذي يعتمد عليه الحوار، وبذلك فإن إمكانية استخدام اللغة في صورة عبارات أو قضايا بطريقة مركزة تضيء آفاق المعاني وتجعلها حاضرة(٢)، وهو الأمر الذي استبعده "جادامر" انتصارًا لمعنى الحوار.

ثالثاً: اعترف "جادامر" في عام ١٩٩٢م أثناء تأمله لرحلته الفلسفية في القرن العشرين بمشروعية النقد الموجه لكتابه "الحقيقة والمنهج": حيث رأى أن مفهومه عن المنهج العلمي لا يعكس المفهوم المركب عن المنهج الذي نما في العلوم الطبيعية بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين؛ فضلاً عن أن "الحقيقة والمنهج" لا يميز بصورة كافية بين عمل "المؤرخ" في تفسير نص تاريخي، وعمل "الفيلولوجي" في تفسير نص كلاسيكي وأدبي(٣).

رابعًا: يرى "جادامر" أن التاريخانية والموضوعية يختزلان الأفكار المسبقة التي تصبح عوائق لابد من إزالتها للوصول إلى الموضوعية، و"يقترح" إعادة بناء هذه الأفكار، وتطويرها، وإحداث ثورة بها أو ترويضها لتقوم بدور نشط في بناء تصورنا عن

(1) Davery: R. N.: "A Response to P.C. Smith….", P. 56.
(2) Ibid, P. 57-58.
(3) Wright, K. "Gadamer" in Ency. of Philosophy, P. 80.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العالم وفهمنا للأشياء، وأنها بعيدة تمامًا عن أن تكون صورة لتخيلات نابعة من ذاتية متعالية؛ فالأفكار المسبقة عند "جادامر" "مشروع" أو "أولويات" يتم تحديدها لترشدنا إلى تصور العالم، وفهم ما يمثله لوعينا، وهي بذلك ليست جبرية، ولا تشتمل على رؤية قاصرة، وإنما تستلزم دائمًا تصحيحًا لها، وإعادة إقرار لصلاحيتها تبعًا لاكتشاف آفاق جديدة للمعنى والفهم.

ومع ذلك فإن اقتراح جادامر "السابق يبقى محدودًا، لأن توقع الأفكار المسبقة وتوجيهها لا يتم بعيدًا عن نظام إحالي ملزم متمثلاً في الأيديولوجيات، والتراث والمعتقدات، والأحداث وغيرها؛ فهو كامن فيها، محدد لها مما يعوق ممارسة القدرة على الحكم على الأشياء المعرفية بحرية[١].

وأما عن حقيقة موقف جادامر من العلاقة بين الفكر واللغة، فقد أمكن التوصل إلى ما يلي من نتائج:

أولاً: إن الانتماء بين اللغة والفكر هو أساس الحقيقة عند "جادامر" أو إنه حقيقة الحقيقة[*]، فالإنارة[**] بتعبير "هايدجر" أو الانتماء بتعبير "جادامر" هو الموضع الذي تلتقي فيه الذات مع الموضوع أو الفكر مع العالم، أو يأتلفان معًا قبل وجودهما في الفكر الواعي، وتقدم اللغة هذا الكل الأصلي في صورة صميمة ينتمي فيها كل منهما إلى الآخر لأنهما متناهيان؛ وينفتحان في تطور مستمر على خبرة جديدة.

ثانيًا: "الشعور بالإلف" هو التعبير الملائم الذي يكشف عن حقيقة موقفنا من اللغة عند "جادامر"، فاللغة تمثل وحدة الحوار، أو هي المستقر الذي نشعر عنده الإلف والسكن، حتى إن سكننا في الكلمة قد لا يتم بوعي منا. واللغة في ذلك تختلف عن التفكير؛ فهي تحيط بنا تمامًا مثل الشعور بالسكن الذي يسبق كل فكرة لدينا عنه[٢]. و"جادامر" يقترب في ذلك من فكر أستاذه "هايدجر"؛ بل يكاد يستخدم اصطلاحاته الأنطولوجية نفسها.

ثالثاً: كل لغة، وكل ما يمكن تفسيره وفهمه يتضمن انقسامًا بين ما يوجد وما يعنيه؛ فضلاً عن أن ما تعنيه الكلمة ليس هو الكلمة، ومع ذلك إذا ميزنا بين المعنى والكلمة كي

---

(١) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا....".، ص ١٥٧.

(*) Belonging is the ground of truth; it is the truth of truth.

(**) Lichtung.

(2) Weinscheimer, J.: "Gadamer's Hermeneutics…..", P. 249.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحدد ما هي الكلمة في حد ذتها، فإنها لن تعني أي شيء، ولن تكون كلمة، أي أن اللغة لا توجد في ذاتها، وإنما توجد في صورة علاقة، والكلمة تكون كذلك عندما تصبح مفهومة، أو عندما تعني شيئًا آخر سوى ذاتها، وأيضًا عندما يتلاشى ما يوجد في المعنى المقصود أو في تفسيرها.

ويتضح من ذلك أن ما يمكن فهمه لا يوجد في ذاته، وإنما في الوحدة التي تجمع بين ضروب فهمه المختلفة، وتظهر أهمية ذلك خصوصًا في الهيرمينوطيقا الاستطيقية، والتاريخية عند "جادامر"؛ فماهية العمل الفني لا يمكن فصلها عن الطريقة التي يظهر بها عندما نعيد إنتاجه أو تفسيره، كما أننا إذا أردنا أن يكون التاريخ مفهومًا، علينا أن ننظر إلى دلالة الحدث التاريخي أو المعنى في نص ما على أنها لا تمثل موضوعًا ثابتًا في حد ذاته[١]. بحيث يمكن القول بأن "**الوجود الذي يمكن فهمه هو الوجود التاريخي**"، لأنه يظهر في صورة مختلفة باستمرار؛ ومع ذلك فإن هذا الاختلاف لا يسمع بأي تمييز بين الوجود وفهم الوجود؛ "هذا الاختلاف دونما تمييز" أو بعبارة أخرى "هذه الوحدة" هي ما تشير إليه ضمنًا الهيرمينوطيقا، بحيث يمكن القول بأن الأنطولوجيا الهيرمينوطيقية عند "جادامر" تتضمن "مفارقة"، وهي المفارقة المتضمنة في كل تفسير؛ أي أن التراث الذي تفسره هو "واحد ومع ذلك مختلف"[٢].

رابعًا: إن فكرة الشبيه والمختلف عند "جادامر" قد وُجد لها مثيلاً عند "أفلاطون" في الواحد والكثير[*]، وإن ذروة الميتافيزيقا الأفلاطونية تظهر عند نقطة الانتقال من مجال الفكرة إلى تجلياتها المسبقة، بحيث تصبح المظاهر المتعددة معبرة عن الفكرة الواحدة كما هي الحال في فكرة "الجميل" عند "أفلاطون"؛ إذ إن من طبيعة الجمال أن يظهر أو أن يتجلى، كما أن لفكرة الجمال وظيفة أنطولوجية تتمثل في أن تكون وسيطًا بين الفكرة والمظهر، بحيث يكون في كل مظهر جمالي حضور مباشر لفكرة الجمال، ولا حاجة بنا إلى البحث فيما وراء تجليات الجميل لكي نكتشف الجمال الحقيقي، لأن الجمال ذاته حاضر في كل من هذه التجليات.

ولا تمييز هنا بين كثرة التجليات الجميلة والفكرة الواحدة عن الجمال، والأمر كذلك عند "جادامر"؛ فالوجود سواء كان استطيقيا أم تاريخيًا أم أنطولوجيًا لا ينفصل عن تجلياته التاريخية[٣].

---

(1) Ibid, P. 255.
(2) Ibid, P. 256.
(*) The same and the different – the one and the many.
(3) Ibid, P. 257.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامساً: إننا في مجال الخبرة الفنية نعلو على مفهوم الذاتية، حيث إن اللعبة التي نشترك فيها في الفن تمثل تحديًا لنا كي نغير من أفكارنا وأنفسنا، بعبارة أخرى نحن في"لعبة اللغة" التي تكون وسيطاً للفهم نعلو على ذاتيتنا بصورة حوارية عن طريق تغيير فهمنا لذواتنا، فضلاً عن تغيير فهمنا للحقيقة التي يراها الآخرون؛ فنحن – مثلاً – عند تفسير العمل الفني لا نتوصل مرة أخرى للحقيقة التي يمثلها ذلك العمل؛ وإنما نتوصل إلى فهم مختلف لما يمثله من حقيقة[١].

ومن ناحية أخرى يرى "جادامر" في مجال التاريخ أن "**حقيقة التراث تحدث لنا**"، فنحن دائمًا يحكمنا التراث بصورة مسبقة، وهو الذي يؤكد مشروعيته قبل الوعي به، كما أنه ليس بوسعنا أن نتخلص من الأحكام المسبقة حول هذا التراث مما يميز الموجود التاريخي في تناهيه؛ أي أنه على الرغم من رغبتنا في الالتزام بالمنهج والموضوعية، وفي أن نظل منفصلين عن اللعبة، وعلى الرغم من محاولاتنا لمنعها، فإن "حقيقة التراث تحدث لنا"[٢]، وتفسير ذلك – وفقًا لما يراه "جادامر" – إمكانية صنع نسيج من الأفكار داخل مجال اجتماعي ملزم من خلال مبدأ "الوعي التاريخي الفعال"؛ فعمل التاريخ وإنتاجه هو الذي يشكل الوعي الفردي والجماعي، وهو صانع حقيقة التراث أو "أنماط الوجود" من أجل تحديد أنماط الفهم، وعمل التاريخ هو إدخال الوعي في الصيرورة الدائمة للمهمة التاريخية انطلاقًا من عنصرين أساسيين: الحوار مع الذات أو الوعي الداخلي، والتواصل الجمالي من خلال ذلك الحوار.

سادساً: إن "عالمية الهيرمينوطيقا" أو ما تتصف به من سمة كلية معناها – عند "جادامر" – تكوين الخبرة الفردية والجماعية في عالم التفسير، أو التفسير باعتباره "عالمًا للبعد التاريخي والجمالي واللغوي في التجربة الإنسانية؛ إذ إن فعل اللغة لا يتم من خلال القول، وإنما من خلال الحوار، فضلاً عن أن عالمية هيرمينوطيقا "جادامر" لا تقوم على بنية اللغة من حيث هي عبارات منطقية وأبنية نحوية وقواعد تركيبية، وكلها تقوم على بعدها "التواصلي" متمثلاً في "الحوار"[٣].

---

(1) Wright, K.: "Gadamer In Ency. of Philosophy", ….. ", P. 830.
(2) Weinscheimer, J.: "Gadamer's Hermeneutics…..", P. 258.
(٣) محمد شوقي الزين: "عالمية هيرمينوطيقا ….."، ص ١٥٨-١٥٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر الألمانية:

- Gadamer, Hans-Georg: Wahrheit und Methode-Grundzuge einer philosophischen Hermeneutik, J.C.B Mohr (Paul Siebeck), Gesammelte Werke Band 1, Tubingen, 1986.

ثانياً: مصادر مترجمة إلى الإنجليزية:

- Gadamer, H.G.: "Truth & Method", trans. by Weinscheimer J.C. & Marshall, D.G., 2nd Edit, the Continuum Publishing Company, New York, 1998.
- _____: "Gadamer On Gadamer" trans. by schaaf, B., Ayleworth, G.E., in "Gadamer and Hermeneutics", Continental Philosophy, IV Routledge, Chapman and Hall, Inc., London, 1991.

ثالثاً: مراجع ومقالات أجنبية:

- Davey, R. Nicholas: "A Response to P.C. Smith in" Gadamer and Hermeneutics, Edit. With Introduction by Hugh J. Silverman, Routledge, Great Britain, 1991.
- Dennis J. Schmidt: "Gadamer" in a Companion to Continental Philosophy", Critchley, S. & Schroeder, W.R. (Edit.), Blackwell Publishers Ltd, 1999.
- Silverman, Hughj. (Edit.): "Gadamer & Hermeneutics", Continental Philosophy IV, Routledge, Chapman and Hall, Inc., London, 1991.
- Smith, P. Christoher: "Plato As Impusle & Obstacle in Gadamer's Development of A Hermeneutical Theory" in Gadamer and Hermeneutics" edit. By H.J. Silverman, Routledge, Great Britain, 1991.
- Weinscheimer, J.C.: "Gadamer's Hermeneutics-A Reading of Truth & Method, Yale Uni. Press U.S.A., 1989.

رابعاً: موسوعات وقواميس أجنبية:

- Routledge Ency. of Philosophy, Edit. By Edward Craig, Routledge, London, 1998. (Cp: Wright, Kathleen: "Gadamer").
- Biographical Dictionary of 20th Century Philosophers, edit. By Brown, S., Collinson, D., Wilkinson, R., Routledge, London, 1996. (Cp. Outwaite, W.: "Gadamer").

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامساً: دوريات عربية:

١- مجلة فصول – المجلد السادس عشر – العدد الرابع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ربيع سنة ١٩٩٨.

٢- مجلة فصول – العدد ٥٩ – الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة٢٠٠٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com